جـــرمينـــال

حين يصبح الصمت جريمة بلا شهود

روايـــــة

اسم الكتاب: جرمينال
اسم المؤلف: شيرين رضا
التصنيف: رواية
الحجم: 14 - 20
عدد الصفحات: 148
سنة الإصدار: 2025
رقم الإيداع: 4293 / 2025
الترقيم الدولي: 1 – 146 – 971 – 977 - 97
تدقيق لغوي: د. هبة ماردين
تصميم غلاف: بلال محمد
مراجع أدبي: مي حسام أبو صير
تنسيق وإخراج: محمد وجيه

الناشر
ديوان العرب للنشر والتوزيع

إميلات الدار
dewanalarabegypt@gmail.com
dewanelarab1978@gmail.com

جرمينال

حين يصبح الصمت جريمة بلا شهود

رواية

شيرين رضا

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
ديوان العرب
حقوق حلمك

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف،
ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي،
أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه،
أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت،
إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

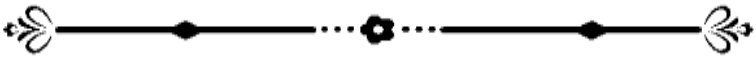

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَنِ ٱلرَّحِيمِ

"وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي"

"صَـــــــدَقَ اللَّـــهُ الْعَظِيـــم"

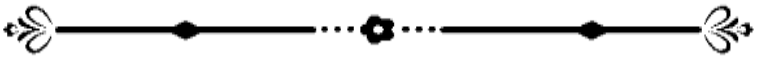

"من يبحث عن الحقيقة بعمق، كمن التصق بالشمس"

أرادت الدفء فاحترقت.. ظنّت أنّها تعيش حياة عادية حتى انقلب كلّ شيء.. عاشت اللعنة كعمل سفليّ لا يمكن عكسه أو إبطاله.. تجرعت الكوابيس حتى أصبحت جزءًا من تكوينها.. استيقظت على جناح طائر أسود يحمل من الأسرار أعجبها.. فظنت يومًا أنّها ملعونة، ولم تعلم أنّها اللعنة ذاتها.

فالحقيقة الكاملة هي الكابوس الذي لا يمكن الاستيقاظ منه، قد تكون الحقيقة في عقل كلٍّ منا، لكن مع اختلاف تفسيرها."

عادل الأمير

من هنا بدأت الحكاية

في قلب صحراء لا يحدّها سوى الأفق، يلتقي الغروب بالليل فتتوارى الشمس خلف جدران الغروب، وينبش الصمت عن سرٍ دفين، هنا تظهر شخصية تتحدى جبروت الطبيعة وسطوة الزمن، تسعى إلى سبر أغوار قوتها الغامضة، بحثًا عن الحقيقة وسط الظلام. "جرمينال" حيث يصبح الصمت جريمة بلا شهود، وتعود الشمس في محاولة جريئة لإعادة تشكيل الواقع لكن... هل ستستطيع الصمود! أم ستُدفن وسط أطياف الظلام؟

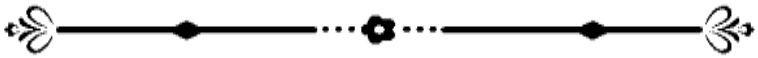

(1) وشـــائـــج

"ذكرياتنا بوابة للماضي قد نرغب في استعادتها يومًا وقد نفرُّ منها خوفًا"

وُلد التحدي معي، خرج من رحم أمي يوم اهتزت جدران البيت بصيحاتها، كأنها سهام ممضّة تمزق سكون الليل الثقيل. كان موعد ولادتها قد حلّ، وجاء معه الوجل يطرق القلوب، فامرأة بلغت السابعة بعد الأربعين لا تملك رفاهية المقامرة بصحتها. لكن كيف لها أن تنصت لتحذيرات الأطباء وقد تملكها عناد جارف، مغلف برغبة ملتهبة في إنجاب "صبي" يحمل اسم العائلة، يبدد وحشة شجرة الأنساب ويُعيد التوازن المفقود؟

تغافلت، أو ربما تناست، أن الله يهب لمن يشاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور، يا ليتها أبصرت الغيب، يا ليتها علمت المصير الذي كان ينتظرها وينتظرني... لعلها حينها كانت ستوأدني قبل أن أفتح عينيّ على عالمها، ذاك العالم الموشوم بندوبٍ أعمق مما يحتمل قلب وليد.

....

البدايـــة

في أعماق الصعيد، تستكين قرية "الشرقاوية" كحكاية من زمن غابر، تتوارى بين ظلال الأشجار الباسقة، تعانق السماء بخشوع، وتخفي أسرارها خلف جدران بيوتها العتيقة، يقطّع سكونها الرتيب صوت عجلات القطار، ذلك الزائر الحديدي الذي يشق طريقه بمحاذاة رصيفها المتواضع، تاركًا خلفه صدى يعبث بالذاكرة، ويستحضر ماضٍ لم يُطوَ بعد.

يحكم البلدة السيد فاروق، كبير العائلة وحاكمها بلا منازع، رجل ورث الزعامة لا بحكم الدم فقط، بل بسطوة الهيبة وسداد الرأي. متين البنيان، تتحدث عيناه قبل أن ينطق، حين يحضر، تخمد الألسن، ويُرهف السمع، كأن المكان يخضع لقانون غير مكتوب، فرضته هيبته قبل أوامره.

في وقفته جلالٌ لا يقبل الانكسار، وفي صمته رهبةٌ تفوق الكلام، فمن ذا الذي يجرؤ على كسر هيبته، وهو الذي اعتاد أن تُطأطأ الرؤوس احترامًا لمجرد مروره؟

الخامس عشر من نوفمبر

دوي عاصف مزق سكون الليل، البرق يشق ظلام السماء بسيوط مشتعلة يتحداها بقوة، المشهد بدا كلوحة ملحمية، خطتها الطبيعة بيدٍ مضطربة، كأنّها تنتظر حدثًا جللًا.

امتلأت الأجواء بتوتر ثقيل، رسمه أهالي القرية وهم يترقبون ما يحدث، يتقلب البعض خوفًا من برد الليل القارس، وآخرون يتلهفون على وليمة تبعث الدفء في بطونهم من منزل كبير عائلة الشرقاوي.

داخل البيت الكبير، تسللت الهمسات بين الجميع، أنفاسهم محبوسة، وأعينهم شاخصة نحو الغرفة المغلقة، حيث تترقب اللحظة الفارقة في مصير عائلة الشرقاوي.

الجميع يترقب ميلاد الصبي المنتظر، ذاك الذي سيُثبت دعائم الاسم، ويرفع شأن العائلة، ويُؤمن إرث والده في شجرة المجد الممتدة عبر الأجيال.

بعد عدة ساعات من شوق الانتظار، خرجت الداية أم إسماعيل أخيرًا بخطوات متثاقلة تناسب عمرها، مهللة بالبشارة للسيد فاروق الشرقاوي:

وُلد الصبي، الوريث المنتظر!

دوت الصيحات الفرحة في أرجاء القرية وتصاعدت ضربات الطبول في تناغم مع رعد السماء، يعلن ميلاد لحظة فارقة في تاريخ عائلة الشرقاوي. ومع انشقاق الليل في منتصفه، اشتعلت الأجواء أكثر، وارتفعت الهتافات وزخت الأهازيج في كلّ الأركان، لتعانق جدران المنزل وتخرج لتملأ السماء.

وفي الخارج احتشد الجمع حول الموائد العامرة بكل ما تشتهي الأنفس، يتناولون الطعام بشغف كأنما يلتهمون الفرح ذاته، بينما الألسنة لا تكف عن الدعاء بأن يفيض خير الشرقاويين إلى ما لا نهاية، وأن يكون الصبي بشارة مجدٍ جديدٍ يكتب في صفحات تاريخهم.

دفع فاروق خطاه نحو غرفة زوجته، بخطوات واثقة تتدفق منها الفرحات، وعيناه تدمعان من شدة امتنانه لله على هذا العطاء، اقترب من الفراش ببطء، قلبه يرتجف بالسرور الذي أضعف فؤاده؛ فوقف مكانه للحظة، عازمًا على أن يسجد لله شكرًا.

تقدم نحو سرير الطفل، وراحت الداية أم إسماعيل ترفع الغطاء لتبدل ملابسه، لكن عند رؤية المولود، تجمدت ملامحه! كانت فتاة... صاعقة حلت به، وكأنّ الأرض تهتز من تحته، ارتفع صوته غاضبًا نحو أم إسماعيل، وعيناه تشتعلان بنظرة استجواب قاسية: أين الصبي يا عجوز؟! أين وريثي؟!

رفعت المرأة عينيها ترتجف وهي تحاول تبرير خطأها، قائلة بتوسل:

اغفر لي يا حج فاروق، لم أنتبه... ظننتها صبيًا، الغرفة كانت معتمة بعض الشيء...

ثار غضبه، واندفع نحوها قابضًا على ذراعها بقسوة، دفعها بعنف؛ فأطاحت بها الصدمة أرضًا متوسلة بدموعها أن يسامحها على هذا الخطأ الذي لم تدرك خطورته، كانت الكلمات تخرج من بين شفتين مرتعشتين: أرجوك، سامحني... أقسم أني لم أكن أقصد.

حدق إلى الطفلة؛ فتبددت مظاهر فرحته واستقرت مكانها خيبة ثقيلة، نعم هو لا يكفر بنعمة الله، لكنّه انتظر هذا الصبي ليحمل إرثه، وقف هناك حائرًا بين شعوره بالحزن وخيبة الانتظار.

في تلك اللحظة، اقتحم شقيقه قاسم الغرفة، غاضبًا وقد استرق السمع عليهما اقترب من أم إسماعيل ورفع عصاه بغضب، لكن قبل أن تسقط عليها، أوقفه فاروق بصوت حازم: توقف يا قاسم! ما الذي تفعله؟

رد بصوت عميق، ووجهه محتقن من الغضب:

هذه العجوز تستحق العقاب، كيف تجرؤ على ارتكاب هذا الخطأ، الآن ستطيح سمعة العائلة.

رفع فاروق يده ليوقفه، وحدّق في وجه أخيه ببرود، مشيرًا إلى أن الأمر انتهى، وتلك اللحظة ستبقى كسيرة في نفسه، رغم أنها لن تغير مكانة العائلة، جذبه جانبًا محاولًا تهدئته، بينما استقامت الداية أم إسماعيل بوجه شاحب ودموع سائلة، وقالت بصوت متحشرج:

لدي مخرج حاسم من هذه الأزمة، سيحفظ لك هيبتك أمام البلدة

التفت قاسم إليها، عيناه تقدحان شرارًا، فتابعت حديثها بتوتر شديد، وكأنها تلهث لتنجو من مصير مجهول: أخبر الناس أنّ الله رزقك بصبي وفتاة، لكن المشيئة الإلهية استردت الصبي، لأنّه كان ضعيفًا، واستعاد الله أمانته.

وقع حديثها على قلب فاروق كضربة مدوية، أثارت فيه مشاعر مختلطة؛ فأحس أنّ جزءًا منه حقًا قد مات، تذكر ولده محمود الذي رحل منذ سنوات تاركًا فراغًا لن يملأه غير قدوم وريث يُعيد المجد للعائلة، تبادل هو وقاسم نظرات تملؤها الحيرة والصمت، إلى أن دخلت حفيظة، زوجة قاسم، بعد أن استرقت السمع من وراء الباب، تبادلت النظرات مع زوجها، نظرة صامتة،

كأنها تقرأ أفكاره دون كلام، ثمّ أمسكت بذراع أم إسماعيل بقوة وجرتها إلى الخارج، في حين ظلت المرأة تصرخ وتبكي، متوسلة الصفح.

وقف فاروق، مغيبًا في تيه من أمره، إلى أن أمسك قاسم بذراعه قائلًا بحزم متربص:

سنفعلها يا أخي... لننقذ العائلة، وكي لا تنحني رؤوسنا أمام الجميع.

ثمّ تطلع إلى الطفلة بنظرة باردة تفيض مقتًا، حملها بين يديه، نظر إليها بعينين تقطران كراهية، همس بصوت خافت، تتخلله نبرة متوعدة:

ولادتك لعنة... ستجلبين العار لهذه العائلة، لا خير يُرتجى منك.

تقدم فاروق، وتناول الطفلة من يد شقيقه، ثمّ تمتم بصوت منكسر كأنه يخاطب روحه:

لا تتحدث هكذا، هذا رزق من الله، وله حكمته في أن يهبني هذه الطفلة، لست جاحدًا، لكن لطالما حلمت بصبي يحمل رايتي... لكن لا مهرب من القدر.

وبينما كان يتحدث، لامست أصابع الطفلة أصابعه؛ فشعر بقوة غريبة تتسرب إلى روحه، كأنها تهديه شيئًا من السكينة، أخذ نفسًا عميقًا، ورفع رأسه مردِّدًا الأذان في أذنيها، وابتسم ابتسامة شقت ثغره بحذر، على النقيض، كان شقيقه ينظر إليه بعينين غائرتين بالكره، فهو لم يكن يملك طيبة فاروق أو سكينته؛ بل معروف عنه بملامحه القاسية، ونظرات الغضب التي تشع من عينيه.

حمل الطفلة وخرج إلى ساحة الدار، حيث تجمع أهل القرية، تهليلاتهم تضج باسم السيد فاروق، ثم رفع يده وضرب الأرض بعصاه ضربة مدوية، فارتعد الجميع، وانتبهت العيون؛ فصاح بصوته الجهوري: وهب الله أخي طفلين... صبيًا وفتاة، لكن لله حكمة في أن يُعيد أمانته ويقبض روح الصبي، تاركًا لنا ابنتنا.

توقف هنيهة، ثم أضاف بصوت غامض: دليلة... دليلة فاروق الشرقاوي.

جمدت الصدمة ملامح فاروق، فهو لم يكن يعلم أنه سيختار هذا الاسم لابنته، عمّ الصمت في أرجاء المكان، وكأنّ الأرض حُبست أنفاسها حتى هدأ كل شيء، وتوقفت القرية كلها عن الحركة.

حينها أعطى قاسم إشارة إلى الحرس المنتشرين على الأسطح المجاورة فرفعوا أسلحتهم وانطلقت زخات الرصاص نحو السماء، معلنةً الفرح الصامت الذي يخفي مشاعر معقدة دبت الحياة مجددًا بين الجموع، وصاحوا بصوت واحد: عاش السيد فاروق.

نظر إلى شقيقه بحذر عميق، منتبهًا إلى نظراته المتجهة نحو الطفلة، تلك النظرات التي حملت فيها تهديدًا غامضًا، شعر بأنّ مصير ابنته، قد أصبح رهينة لرغبات أخيه، وأنه لابد أن يحاول تغيير مسار هذا القدر المحتوم.

****

(2) مـــاضٍ

حين يعبث القدر بمصائرنا، نتأرجح بين الحقيقة والوهم، فهل يكون النور سرابًا خادعًا، أم أن الخطيئة تتقنع بضوئه؟

تنساب عجلة الزمن ببطء في حياة دليلة؛ فتضيء قصتها كوميض خاطف وسط ظلام حالك، طفلة لم تختر قدرها، لكنّها وُلدت مثقلة بخطيئة نسجتها الداية أم إسماعيل، تلك المرأة التي جعلت من الأكاذيب حرفة تتقنها، ومن الوهم حقيقة لا يرقى إليها الشك، حملت سرًا مظلمًا وعلقته حول عنقها منذ اللحظة الأولى لصرختها في الحياة.

انقضت خمس سنوات، وهي تزداد قوة تحت رعاية والدها، السند الثابت الذي لا يتزعزع، ومصدر قوتها الذي يتيح لها التنفس بحرية خجولة.

ومن جهة أخرى، لم تجد في عيون الآخرين سوى نظرات مشبعة بعداوات صامتة، شكوكهم تتسلل إليها كقيد ثقيل، يطوق كلّ تفاصيل حياتها، تحاكمها دون رحمة، وكأنّ ذنبها الوحيد أنّها وُلدت فتاة في عالمٍ لا يغفر للإناث وجودهن.

عاشت غريبة في بيت ينكرها، غربة تغلغلت في كلّ ركن وشهدت عليها كلّ لحظة، إذ فجرت في أعماقها صراعًا بين طفلة تبحث عن أمان وأشباح

صمت واتهام تطاردها، حرب بلا نصر، أثقلت روحها بخسائر تحفر حكاية لم تُكتب بدايتها بعد.

فقد ورثت عن والدها فكرًا عنيدًا، صاغته درعًا لا يُخترق. واجهت بشجاعة محاولات والدتها لثنيها عن ارتياد المدرسة، تلك البوابة التي قادتها إلى عالم يتجاوز حدود قريتها. فلم تكن المدرسة مجرد مبنى، بل كانت شعلة عزيمتها التي لم تخمدها العوائق، ولا انطفأت رغم الأذى والتحديات التي اعترضت طريقها يومًا بعد يوم.

وفي إحدى الليالي، نشبت مشاجرة عنيفة بينها وبين أحد الصبية داخل المدرسة، انتهت بحادثة تناقلتها ألسنة القرية، مما منح والدتها الفرصة التي طالما انتظرتها لمنعها من الذهاب نهائيًا. كانت تلك الليلة مشحونة بالغضب والقلق، فهرعت دليلة إلى حضن والدها، كعادتها كلما ارتكبت الأخطاء، محاولَة الاختباء من العقاب، لكن لم يتسنَّ لها الوقت لتروي ما حدث، حيث دفعت والدتها باب الغرفة بعنف، أصابعها مشدودة على العصا كأنها قابضة على جمرة مشتعلة، والشرر يتطاير من عينيها الغاضبتين، وكأنّ عاصفة من نار على وشك الانفجار.

وقف فاروق، كما اعتاد دائمًا، حاجزًا منيعًا بين ابنته والعالم القاسي الذي لطالما ألحق بها الألم، اقترب بخطوات واثقة، ليصد عنها الضربة بيده، متلقياً الألم نيابة عنها دون أن يرفَّ له جفن. تجمّدت دليلة في مكانها، وامتلأت عيناها بالدموع، وهي ترى والدها يتحول إلى درعٍ واقٍ يحميها، تمامًا كما فعل

منذ اليوم الأول لولادتها، تلك اللحظة لم تكن مجرد حماية عابرة، بل كانت امتدادًا لحبٍّ أزليٍّ وُلِد معه، حب تبادلته مع والدها منذ أن تشبثت أصابعها الصغيرة بيده يوم ولادتها، وكأنّ معاهدة خفية قد بُنيت بينهما، أن يبقى السند الأول والأخير لها.

غادرت والدتها الغرفة غاضبة، تتوعد بعقاب أشد، لكنّ دليلة لم تأبه؛ فوالدها بجانبها، وهذا وحده كان كافيًا ليغمر قلبها بالسكينة.

ومع مرور الأيام والسنوات، طويت صفحة من حياتها، تلك التي شكلت ملامح شخصيتها وأيقظت في قلبها بذور أحلام جديدة. كأنّ الزمن كان يهيئ لها فصلًا آخر، فصلًا محملًا بتحديات تتجاوز حدود الممكن، وأحداثًا تفوق كلّ تصور، لتبدأ حكاية جديدة، مليئة بالمفاجآت التي لا يمكن لأحدٍ أن يتوقعها.

.....

نضجت دليلة وتألقَت ملامحها، فأصبحت أكثر جمالًا، وفي عيونها كان هناك طيف من التحدي الذي بدا غريبًا عن محيطها، لكن القدر نسج لها واقعًا مريرًا جعلها تخوض حربًا لا تنتهي، تتحدى فيها كلّ ما يحاول قمعها أو تقييد حريتها؛ حتى تحولت حياتها إلى جحيم مستعر.

فأخذت علاقتها بوالدتها تنعطف في اتجاه مغاير حيث أصبحت كتربة قاحلة، لم تعرف يوماً ماء المحبة، تفتقر إلى دفء الحياة. كل محاولة للتواصل

بينهما تتحول إلى شرارة تُشعل صدامات حادة، وتتراكم طبقات من الصراع كجدار يعلى مع مرور الزمن، يحجب الضوء عن علاقتهما، ويغلق أمامهما كلّ منفذ للتفاهم.

لم تعرف دليلة معنى الهزيمة، فقد اخترقت حواجز اجتماعية كانت عصية على معظم الفتيات حتى التفكير فيها، لكنّها لم تكتفِ بذلك بل هدمت كل الثوابت التي وضعها المجتمع حولها، تحدث عنها الكبار والصغار، وأصبح اسمها حديث المجالس، فقد رسمت لنفسها عالمًا لا يشبه سواه، عالمًا مليئًا بالقوة والإرادة، حيث كانت البداية في خطوة جريئة لا تُشبه غيرها، فتعلمت ركوب الخيل، متحديةً بذلك الصورة التقليدية للمرأة في قريتها.

وتلك لم تكن مجرد خطوة؛ بل كانت بمثابة إعلان بأنّها قادرة على خوض معارك الحياة بيدين تمسكان زمام الحياة كما تمسك لجام الخيل، معلنةً للعالم أنّ لا شيء يقيدها.

وفي الجانب الآخر حيث والدتها بجمودها وتمسكها بالتقاليد، سعت دائمًا لترويض تلك الروح الثائرة، قررت تزويجها من ابن خالتها، محاولة خنق أحلامها بفرض واقع لا مفر منه، لم تُبدِ دليلة اعتراضًا، لكنها خبأت في أعماقها يقينًا أنّ الوقت سيفتح لها طريق الهروب نحو الحلم الذي تنتظره.

في إحدى أمسيات القرية، عندما بدأت الشمس تميل نحو الغروب، وسادت السماء سحابة ثقيلة كأنها تمهّد ليومٍ طويل من الحزن، اجتمعت القرية في منزل الشرقاوي لتقديم واجب العزاء في وفاة ابن عمهم، حيث امتلأت

الأجواء بكآبة عميقة، وتراكمت نظرات الشفقة والذهول بين الحضور، في حين ظل الصمت الثقيل يكتنف الوجوه المكلومة، كأنما الكلمات نفسها كانت عاجزة عن تخفيف وطأة الفقد.

وفجأة، قطع صمت المكان صوت امرأة تصرخ بكلماتٍ مشتعلة، كلماتٍ تحمل غضبًا مكبوتًا، تتردد في الأرجاء وكأنها لهب اشتعل فجأة في قلب العزاء، ارتبكت الأنفاس، وجم الجميع في ذهول تام، حتى أن بعضهم تراجع خطوة إلى الوراء، بينما كانت المرأة تنهار مغشيًا عليها.

ساد الارتباك، واندفع فاروق إلى الأمام، فأمر أحد رجال العائلة بنقلها إلى المنزل فورًا ليعتني بها النسوة، لكن في تلك اللحظة لم يكن أحد يدرك أنّ هذه الحادثة ستكون المفتاح لسرٍ غامضٍ سيفتح أمامهم بابًا جديدًا سيغير مجرى الأحداث.

تم العزاء في منزل السيد فاروق، حيث الأجواء ملثمة بالحزن والأسى، والجميع غارق في دوامة من الهموم والمواجع. بعد فترة قصيرة، عادت المرأة إلى وعيها، لكنّها كانت في حالة مزرية، شعرها مكشوف وملابسها غريبة عن هذا الموقف، مما أثار قلق الحضور وزاد من حيرتهم حول هويتها وأسباب قدومها، فتقدمت نحوهم، وملامحها مشوهة بغضبٍ مكبوتٍ حتى انفجرت الكلمات منها، تتصاعد مع كلّ حرف: قتلة... أنتم السبب في موته!" فاجتاحت الصدمة المكان، واهتزت الأجواء بما حملته كلماتها من حقد، لتُفتح أبواب الأسئلة، وينفجر الصمت الذي كان يكتنف الجميع.

تجمعت النسوة حولها، تتبادلن الهمسات المريبة حول ما تفوهت به حتى تدخلت عظيمة بحضورها القوي كرصاصة في قلب تلك الفوضى، أسكتت الجميع، ثمّ أمسكت بذراع المرأة بشدة صافعة إياها بقوة، وتحدثت بلهجة حادة: إذا تجرأت على تكرار هذه الحديث، سأجعلهم يحفرون قبرك بجانب قبره.

ثارت المرأة بغضبٍ شديدٍ قائلةً: كيف تجرئين على صفعي! أنتم حقًا بلا رحمة! زوجي جاء إلى هنا كي ينهي الخلاف الذي بينكم، كيف سقط؟ كيف انتهت حياته بتلك الطريقة البشعة! ماذا فعلتم به؟

عادت عظيمة لتمسك بذراع المرأة مجددًا، وبدأت توبيخها بعنفٍ، لكن المرأة قاومت بشدة ودفعتها بعيدًا، مرددة بعض الشتائم. وقفت النساء في حالة من الذهول، لم يحدث أن رفعت امرأة صوتها على زوجة كبير الشرقاوي وابنة كبيرهم، وكأنّها ارتكبت جريمة يجب أن تعاقب عليها. بدأ الفضول يتسلل بينهن لمعرفة من هذه التي تجرأت على سبهم دون أن تخشى العواقب.

فجأة، خلعت عظيمة نعلها ورفعته في وجه المرأة، في مشهد مهين يكشف عن أنّ القوة التي تُمارس في الظلم ليست سوى ضعف متنكر في ثوب العنف. في تلك اللحظة بدت عظيمة هشة أمام القوة الثابتة التي تمثلها المرأة الأخرى.

وقبل أن تصل الضربة إليها، تدخل فاروق بسرعة، ممسكًا بذراعها بقوة، مما دفع النسوة للتراجع في رعبٍ، وتجنب الجميع النظر إلى المشهد الذي بدأ ينقلب إلى مواجهة أكثر اشتعالًا.

فنظر إلى زوجته بنظرة حازمة، فارتدت إلى الوراء على الفور، وأسقطت النعل من يدها رغم الغضب الذي ظل متقدًا في قلبها. استدار فاروق نحو المرأة قائلة بنبرة هادئة ولكن قاطعة: البقاء لله، انتهى العزاء. ثمّ توجه بنظره إلى زوجة أخيه وأصدر أمره بإخراج النساء من الغرفة.

حملت المرأة شالها وغادرت في مشهد مرعب من النظرات التي تبادلتها مع الجميع، وقبل أن تطأ قدماها خارج المنزل، أوقفها دون أن يلتفت إليها، وقال: لا تعودي مرة أخرى، وإياكِ أن تظني أنكِ بعيدة عنا، سيظل أولادك من نسل عائلتنا ولن نتخلى عنهم.

لم يكن فاروق متسلطًا، ولا يحب فرض سلطته بالقوة كما يفعل أخوه، لكنه كان يشعر بثقل الخطأ الذي ارتكبه ابن عمهما حين ذهب وتزوج من خارج العائلة فتاة لا أصل لها، ومنذ تلك اللحظة وهو يشعر أنّ هناك شيء ينتظره يلتف حول رقبته، يحاول ساعيًا تطبيقه، ألا وهي وصية عمه التي ترسخت في عقول الجميع كقانون مقدس "نسل العائلة للعائلة مهما كلفهم الأمر"، تقاليد مخيفة أصبحت قانونًا غير مكتوب، خضعوا له جميعًا دون اعتراض، تمامًا كما تستسلم البهيمة لسكين الذبح دون أن تدرك نهايتها.

.....

ما لبثت الحادثة أن تحولت إلى حديث الساعة في العائلة، تنتقلتها الألسنة كما تحمل الرياح رماد الحريق، مشبعة بالدهشة والتكهنات التي ضاعفها التهويل والمبالغات، حينها انفجرت عظيمة غضبًا، عازمة على استعادة زمام الأمور بسرعة، فخططت لإقامة وليمة فاخرة، سلاحها الذي ستصمت به أفواههم، وترفع راية عائلة الشرقاوي كرمزٍ للكرم الرفيع والضيافة التي لا مثيل لها.

لكن خلف الكواليس، كان صمتها ثقيلًا، يخفي ما لا يُقال.. حتى أتى صبيحة العام الجديد ليهز سكون منزل السيد فاروق، عندما اقتحمه قاسم شاهرًا سلاحه، متقدمًا نحوه بغضب عارم ملأ الأجواء من حوله.

هبّ فاروق مذعورًا نحو صوته الغاضب، ظنّ أنّ كارثة قد حلت، اقترب منه قاسم واضعًا سلاحه بضربة قوية على الطاولة أحدثت صدىً مدويًا، مما جعل الأجواء تتوتر، في تلك اللحظة، أفاقت دليلة على صراخهم، فتسللت خارج غرفتها، متجاهلة محاولات شقيقتها لإيقافها. انحنت خلف نافذة تطل على الغرفة، عيونها تتسابق مع قلبها لترصد ما يحدث داخلها.

في الداخل، ارتفعت حدة الجدال حتى أصبح اسم زوجة ابن عمهم يملأ الأجواء بشحنة من الغضب، ليصيح قاسم قائلًا: أنت السبب! مكانتنا تنهار.

فيجيبه فاروق بنبرة حاسمة: كفى صياحًا يا أخي، أخبرني ماذا حدث؟

أجاب قاسم بنبرة متوترة، تعكس عاصفة الغضب التي كانت تعصف به: أخبرتك ألا نثق بتلك الخائنة؟! ها هي تحاول سلب أموالنا بحيلها الماكرة!

أجابه فاروق بهدوء قاطع: هذا حقها يا قاسم، ابن عمنا كان يشاركنا في الماضي، وما زال له الكثير لدينا.

- ماذا تقول يا أخي.. عن أي حق تتحدث.. تلك الأراضي ملكٌ لنا لا ثالث بيننا، وسوف أجعلها تدفع الثمن غاليًا.

- إياك أن تفعل شيئًا دون علمي، لقد قطعت لها وعدًا، لن يمسها سوء هي وأولادها، وأنت تعلم جيدًا إنني أفي بوعودي يا أخي مهما حدث.

كان قاسم في ذروة غضبه، لم ينل حديث شقيقه رضاه، واشتد الصراع بينهما كمعركة شرسة، كل منهما يحاول أن يمسك بزمام القيادة، وكأنّ النهاية لا تحتمل سوى انتصار واحد. وقبل أن يتفاقم الأمر بينهما أكثر، أتت عظيمة وحسمت الأمر بلهجة قطعية:

الخائنة تُقتل ويدفن سرها.

أيدها قاسم بحقد: سمعة العائلة مقابل حياتها ولن أسمح أن تكون سببًا في إهانتنا.

هنا قطع فاروق عليهما تلك الأحلام المظلمة قائلًا: لن يمحو أحد اسم ابن عمي، أعلم أنّ زوجته أخطأت، لكنّنا لسنا قضاة، ومن أجل أولاده لن يقترب منها أحد، ولده من نسل الشرقاوي، ولن أسمح أن يهان حتى ولو اخطأت بدل المرة ألفًا، ولأجله سأتركها وسأرسل لها ما تريد.

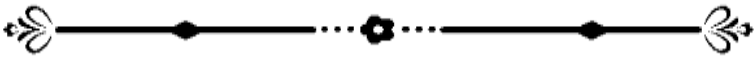

بدت الأمور غامضة لدليلة؛ فهناك من يسعى لسفك الدماء، ووالدها يحاول منع ذلك، كان غضب عارم يملأ قلب قاسم وعظيمة تجاه تلك المرأة، كأنما هي حجر نقيض في حياتهم، مصدرٌ للتهديد الذي يلوح في الأفق.

****

(3) شوك وورد

الأعـراف قطـارٌ لا يحيـد عـن محطـاتـه، وتجـاوزه هـلاك.

بعد مرور عامين

مرت الفصول الخريفية على عائلة الشرقاوي ببطءٍ، وكأنّها حملت معها أيامًا ثقيلة، تخللتها مفاجآت لم يكن أحد يتوقعها، من أبرزها، خطوة الابنة التي تحدت قيود العادات الصارمة، لتسافر إلى إحدى المدن القريبة لمتابعة دراستها.

كانت دليلة بمثابة الرياح التي تنفصل عن مجرى نهر هادئ، تفتح صفحة جديدة في حياتها وحياة عائلتها، بتلك الخطوة الجريئة، حققت أولى أحلامها الصغيرة، وأصبحت قدوة لجميع بنات العائلة اللاتي تعرضن للظلم في حقهن للحصول على التعليم، مؤسسة لنموذج جديد يشجع على التفوق والتحرر الفكري، لكنّها أجبرت على واقع فيه الفتاة خُلقت كطرفٍ ثانٍ وصفة لا محل لها من المكانة في المجتمع.

لهذا تسلحت بإرادة من فولاذ، تشيد كلّ يوم حصنًا جديدًا يفصلها عن ظلّ العائلة الذي خنقها بقوانين لم تؤمن بها يومًا، ومع كلّ لبنة تكشف لها الحياة عن وجوهٍ متعددةٍ، تسلبها جزءًا من براءتها، وتفتح لها أبواب عالم ظنته صغيرًا في البداية، لكنّه امتدّ أمامها كزهرة تتفتح بتأنٍ، تنشر عطر

المعرفة والحرية. كلّ اكتشاف جديد يروي عطشًا ويشعل آخر، مع أنّ رحلتها محفوفة بالصعاب لم تفقد أنوثتها الفريدة التي امتزجت بالقوة في تناغم عجيب، ملامحها أقرب إلى لوحة زيتية نادرة، بشرتها الحنطية تشع تحت أشعة شمس الجنوب، وعيناها السوداوان نافذتان إلى روح عصية على الانكسار، تتأجج فيهما شرارة العزيمة، حتى صمتها حمل جبروتًا غير معلن، كأنه بيان واضح لمن يجرؤ على مواجهتها، جسدت كلّ ما تمثله الفتيات من حقوق واجبة الحصول عليها؛ لتخبر الجميع قولًا واحدًا "أنتم على خطأ" لكن من يستمع!

كل هذا جعل عمها قاسم يحاول كبح جموحها قبل أن يفقد السيطرة عليها، لهذا قذف بها داخل قطار الزواج كي يضمر بذرتها قبل أن تنمو أكثر؛ ففي عرفهم الزواج كلمة يُدرج خلفها الكثير من الممنوعات، تضع الفتاة في خانة الستر، تلك مهنتها الأولى والأخيرة، تمكث في المطبخ نهارًا وفي غرفة النوم ليلًا، حتى وإن مات زوجها تظل راهبة لدى عائلتها تنتظر من يشفق عليها، وإن حصلت على كهل، يزايد على ثمنها من أجل التخلص منها، بدأت معركتها وراحت تزيل بقعة من غبار أعرافهم التي كانت أشبه بمرض عضال صعبٌ شفاؤه.

وفي ليلة وضحاها، اجتاح خبر زفافها القرية، كعاصفة تحمل فرحة مزيفة، وبدأت التحضيرات تتسارع، ولائم تُعد، وزينة تُعلق في كل زاوية، أما هي فقد اشتعلت بداخلها نيران التمرد، وأبت أن تكون جزءًا من هذا المشهد،

راحت أفكارها تتصارع كأمواج هائجة، وقرارها بالرفض لم يكن مجرد كلمة؛ بل ثورة متأججة نضجت على مر السنوات الماضية.

قررت أن تضع حدًا لصمتها، ولجت إلى غرفة الضيافة حيث والدتها تُعد طاولة الطعام، اقتربت منها، عيناها متلألئتان بالغضب والعصيان. تطلعت عظيمة إليها، ثمّ أخفضت نظراتها بعيدًا لتستكمل ما كانت تفعله، لم تكترث لوجودها، تجمدت دليلة وهي ترى هذا المشهد المذل وقبل أن تنطلق كلماتها الغاضبة، سبقها صوت والدتها وعيناها لا تزال ثابتة على ما تفعله وأردفت قائلة: قدركِ يا دليلة، هذا ما تفعله كلّ فتيات العائلة.

وقعت الكلمات ثقيلة كحجرٍ ضرب صدرها، توقفت محاولة أن تشد نفسها من الحافة التي تبتلعها، التفتت إليها لتواجهها، مشاعرها تتلاطم بين السخط وقوة تحاول استحضارها، لم تستطع أن تحتفظ بصوتها المكسور أكثر من ذلك؛ فقالت بحشرجة: لست ككلّ الفتيات يا أمي!

صرخت عظيمة في وجهها، ولمع بريق الكره في عينيها؛ فاستنكرت حديثها قائلة بصوت مرتفع ولهجة قاسية:

لا تخاطبيني بهذا الأسلوب! العائلة تعرف ما هو الأفضل لكِ، ليس عليكِ سوى الطاعة.

قالتها عظيمة وهي تعلم أنّ ليس هناك مكان لتلك الكلمة لدى ابنتها العنيدة، لكنها لن تقبل الهزيمة مهما كلفها الأمر.

لم تستطع دليلة أن تقف صامتة أمام هذا الجحود، واندفعت في هجومٍ مفاجئ، كلماتها كالسهام الجارحة: العائلة أم أنتِ! منذ متى أصبحتِ تسيرين وفق أهواء الآخرين؟ لقد أصدرتِ حكمك يا أمي، لا لتوجهيني؛ بل لتقمعيني!

توقف الزمن للحظة، الهواء في الغرفة يثقل، نظرت إليها عظيمة بعينين قاسيتين، لم تفارقهما الحدة، لم تمنح نفسها فرصة للتفكير، وفي لحظة خاطفة سقط كفها على وجه دليلة لتصفعها صفعةٍ مدوية، جعلتها تتأرجح عائدة بظهرها خطوتين إلى الوراء. رفعت رأسها بشموخ لا يعرف الانحناء أو الانكسار، وكأنّ الصفعة جاءت لتزيدها قوة، ابتسمت ابتسامة مريرة، ثمّ قالت بصوت منخفض لكنه مليء بالثورة: لا أدري... هل أنا حقًا أصل هذا الكره الذي يتغلغل في قلبك نحوي؟ أم أنّ أفكار العائلة البالية هي التي دفعتك للتضحية بي بلا رحمة؟

تحدثت عظيمة وصوتها كحد السيف: حرف آخر وسأجعلك تندمين ندمًا لن يمحوه الزمن!

تراجعت والحزن ينهش ملامحها، قبل أن تتحدث مستنكرة: لدي شقيقتان، لم تلامس إحداهما هذه القسوة منكِ، قسوتك خُلقت معي وحدي... كأنها قدرٌ لا مفرَّ منه.

ولج قاسم الغرفة بعد أن استمع إلى حديثها، وقع خطواته أعلن عن قدوم الخطر، وعصاه دقت الأرض بصوتٍ رجّ أرجاء المكان، اقترب منها، عيناه مليئتان بالغل، عروق وجهه تنبض بعنف، تكاد تتمزق.

تقدم نحوها قائلًا: ولادتك عارٌ على العائلة، كان عليّ أن أقتلكِ ذلك اليوم، فنحنُ لسنا بحاجة إلى مزيد من الضلوع المعوجّة.

فجأة، تعالت صرخة فاروق وهو ينادي: قاسم.

خيّم الصمت على الجميع عند رؤيته في تلك الحالة، وقف أمام شقيقه، عيناه تتأججان بالغضب، كأنما انفجرت فيهما نيران الكلام الذي أغضبه، فقال بصوت حاسم: تلك التي تتحدث عنها ابنة فاروق الشرقاوي، كبير العائلة، ابنتي، ولن أسمح لأحد، حتى وإن كنت أنت أن تمسها بسوء، لهذا قرار زواجها أنا من سأقرره حين أرى الوقت المناسب، ولن يعارضني أحد منكما.

انطلقت كلماته كصاعقة سقطت فوق رأسيهما، جحظت عيناهما وهما يشاهدان هذا العرض الذي لم يحدث في تاريخ العائلة، ثار قاسم وراح يصيح غاضبًا، بينما الألم يعتصر روح دليلة وهي ترى الأمور بين والدها وعمها تتشابك وتتعقد أكثر وكلما رفع قاسم صوته، تشعر بشيءٍ ثقيلٍ يهبط على صدرها، مزيج من خوف عميق ورغبة متوحشة في التمرد والهروب بعيدًا.

.....

مع مرور الأيام، أدركت أنّ معركتها لم تكن مجرد صراع مع العائلة؛ بل هي حرب شاملة، حرب لم تقتصر على أفراد الأسرة فقط، بل خاضتها ضد كلّ شيء حاول أن يعيقها. وجدت نفسها وحيدة في ساحة المعركة، تسعى لتوجيه دفتها وسط عاصفة هوجاء، تعبر فوق الخطوط الحمراء التي أُقيمت لعرقلتها، مثلها مثل فتيات أخريات تمردن على قيود الأعراف الجائرة. وما اكتشفته في تلك المعركة هو أنّ سلاحها الحقيقي كان والدها، فقد جعل الخوف يتوارى عنها، ليحل مكانه الأمان وتمكنت من الفرار من مصيدة الزواج المبكر الذي أرادوا سجنها فيه، ذلك الزواج الذي لا يقتصر على كونه كارثة، بل هو جزء من منظومة مستترة من الجرائم التي يخفيها جبروت عائلة الشرقاوي. ووسط معركتها ضد هذه التقاليد المدمرة، فوجئت بمأساة أشدّ فتكًا من كل ما سبق، مأساة قلبت حياتها رأسًا على عقب وأجبرت عالمها على أن يعيد تشكيل نفسه.

في إحدى الليالي، عادت من مدرستها مبكرًا، دلفت إلى غرفتها، حيث ظلت هناك حتى أسدل الليل أول شعاع له، وعندما استفاقت من نومها، وفي لحظة غفلة منها، اخترق سكون المكان صخبٌ مفاجئ، استفز جسدها الصوت الغريب الذي ملأ الأرجاء، كان أشبه بصيحاتٍ غارقة في الذعر، فتحت النافذة ببطء، محاولة اكتشاف مصدر الصوت الذي تسلل إلى مسامعها؛ لتجد أمامها مشهدًا مروعًا ظهر لها من خلف النافذة المقابلة،

نسوة يتناوبن على إحكام قبضتهن حول طفلة صغيرة، تصارعهن ببؤس وهلع، بينما ملامحهن ملطخة بالقسوة والبلادة، تفجر المشهد أمام عينيها كعاصفة مفاجئة، لم تصدق عيناها في البداية، كأنما ارتجفت أمام حقيقة لطالما ظهرت عارية وسط أعرافهم لكنّها لم تشاهدها بهذا القرب من قبل.

مشاعر متناقضة من الخوف، الاشمئزاز والخجل والاستياء اجتاحت قلبها وهي ترى الطفلة الصغيرة تُسحق تحت وطأة تقاليد لا ترحم، تعرفت عليها، كانت ابنة جاراتهم، لم تتجاوز ربيعها الثاني عشر، وقفت تتلصص عليهن في صمت، دون أن يراها أحد، المكان يعمه الفوضى.. دلو من الماء، أدوات حادة، شاش، ومطهرات، تراجعت قليلاً، وعيناها تقعان على زوجة عمها قاسم، حفيظة تضع عصبة سوداء على رأسها وحول عينيها خط أسود غليظ، لتبدو كأحد رجال العصابات.

هبت الريح فجأة، فتراقص ضوء المصباح كأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وألقى بظلال مرتجفة على المكان، فبدت الرؤية ضبابية مشوشة. فتحت النافذة على مصراعيها، وكأنها تكشف الستار عن مسرحٍ مشؤوم، لتجد المشهد أمامها واضحًا، صادمًا كجرحٍ نازف لا يمكن إخفاؤه.

هناك في قلب الظلام، أحاطت النسوة بالطفلة كضباع تلتف حول صيدٍ واهن، أمسك بعضهن بقدميها النحيلتين كقيود لا تعرف الرحمة، بينما

أخرى شدت يديها الصغيرتين بشال مهترئ، كأنها تغلق أبواب البراءة على صرخة لن يُسمع لها صدى.

تقدمت امرأة بخطوات ثقيلة، يداها تحملان مشرطًا لامعًا خرج للتوّ من فوق غلاية الماء المغلي، بخاره يتصاعد كأنفاس جريمة على وشك أن تكتمل، كانت ملامحها متجمدة، وعيناها خاويتين من كل إحساس. بصوتٍ آلي، كررت اسم الله، كأنّها تتستر خلف القداسة وهي تهم بانتهاك ما لا يُحتمل.

باعدت بين ساقي الطفلة بيدٍ باردةٍ كالموت، ثمّ امتد المشرط بينهما، مخترقًا براءتها دون تردد، وفي اللحظة التي سُلبت فيها طفولتها، انطلقت منها صرخة مدوية، لم تكن مجرد صوت، بل روح تُمزق وتُلقى في العدم. اخترقت الصرخة جدران الصمت، وصعدت إلى السماء كنداء استغاثة أخير، بينما الأرض ابتلعت ما تبقى من صوتها في غياهب العدم.

أغلقت دليلة أذنيها في ذعرٍ مرعبٍ، وجسدها يرتجف كعصفور محاصر في قيد عاصفة، بينما الدماء تتدفق أمامها، كأنهارٍ من الألم، والأصوات تصدح حولها، اختلطت بين ضحكات مريبة وأهازيج مبتذلة، كاحتفالات شريرة على مذبحة.

تسللت اللحظات كأشباحٍ ثقيلة، كأنها سمٌّ بطيء، ومعها لفظ الزمن أنفاسه الأخيرة، تلاشى الصخب شيئًا فشيئًا، حتى ذبلت الصرخات في فضاء

المكان، وعمّ الصمت القاتل، كأنما الزمن نفسه امتصه هذا السكون العميق، فبات أشد فتكًا من أي ضجيج.

كأنّ الكون بأسره في تواطؤٍ خفي لإخفاء الحقيقة المرعبة، حتى تسربت الهمسات بين الجدران، محملةً بنبأ موتٍ لا يقبل التصديق... ماتت الطفلة.

****

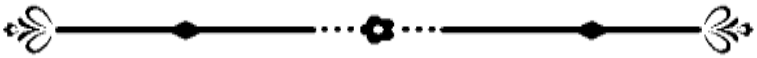

(4) قـــــرار

الحيـاة لا تنـصف، ومـيزانـها مـائل، والفـوز فيـها يبـدأ بقـبول الخسـارة.

كانت الغيوم المتثاقلة تحجب شمس النهار، وكأنّها تعكس ثقل الأجواء داخل مجلس آل الشرقاوي الرجال متحلقون حول طاولة خشبية، وجوههم مكفهرة، الهمسات المتوترة تملأ الفراغ، قاسم المتهم في قضية الاعتداء على شاب من عائلة أبي يزيد، جلس في منتصف المجلس، يداه تقبضان على عصاه بقوة، كأنه يستعد للإطاحة بهم، بينما كان الحاضرون يتجادلون في صخب محتدم انفتح الباب بعنف؛ لتدخل دليلة بخطوات ثابتة ونظراتها تخترق الجمع كسهمٍ متقن التصويب.

توقف الحديث فجأة، وارتفعت الأنظار نحوها بتعجب واستنكار، التفت والدها لها بحدةٍ، لكن قبل أن يطلق اعتراضه، انحنت نحوه وهمست بشيءٍ جعله يبتلع كلماته، ثمّ أومأ لها رأسه ببطء.

تقدمت إلى منتصف المجلس، ثوبها البسيط الطويل يلامس الأرض، لكنّها بدت كما لو كانت محاربة تحمل درع الحق، نظرت إلى الجميع وقالت بثقة: هل أنهيتم حديثكم، أم عليّ أن أوضح لكم حقيقة ما حدث؟

همهمات الاستنكار تعالت، أحد الرجال وقف ليقاطعها، لكن فاروق رفع يده بإشارة صريحة لإسكات الجميع، نظرت إليهم ثمّ قالت بثبات:

اتهمتم عمي بضرب ولدكم، وطالبتم بدية، لكن دعوني أوضح لكم أمرًا بسيطًا، القضية أكبر مما تحاولون إخفاءه. صمتت قليلًا في حين تصلبت الأنظار تجاهها، محملةً باعتراض لا يخفى، لكن نظرات فاروق الحادة حطمت صمت الحضور، وجعلتهم يرتاعون من تحديها. استجمعت شجاعتها، وعادت لتستكمل حديثها بثبات وثقة:

ولدكم الذي تزعمون أنه تعرض للضرب المبرح على يد عمي، غادر القرية في تلك الليلة نفسها متوجهًا إلى القاهرة، مما يدل على أنه رحل وهو في تمام عافيته، دون أي إصابات. لكن قبل أن يعود من هناك تعرض لحادث هو ما ألحق به الإصابات التي تحاولون تحميلها لعمي. ساد الصمت لحظة ثقيلة، وكأنّ الأجواء تجمدت، قبل أن تقطعها دليلة، فتقدمت نحو كبيرهم، وأخرجت رزمة من الصور، وضعتها أمامه وقالت: ها هي صور ولدكم أثناء إحدى السهرات في القاهرة في الليلة نفسها، مع توقيت وتاريخ واضحين لا لبس فيهما، وإلى جانبها، شهادة تؤكد دخوله المستشفى في القاهرة بعد تعرضه لحادث شجار مع أصدقائه، أما عن مصدر هذه الصور، فلا تسارعوا بالتساؤل؛ فالحديث عن الحصول عليها ليس بالأمر اليسير في مجتمعنا الذي نعيش فيه.

قلب الرجل الصور بيدين مرتعشتين، وأعادت الهمسات الارتفاع بين الحضور، حتى وقف أحدهم متحديًا قائلاً: "كيف تجرئين على الحديث هكذا أمامنا؟ أهي جرأة أم وقاحة؟

ابتسمت له وأجابته ببرود يحمل في طياته قوة لا تخطئها العين:

ليست جرأة ولا وقاحة، بل حقيقة. فالقانون لا يحتاج إلى تلاعب، وأدلة الزيف لا تحتاج لجهد لإثباتها، وأذكركم أن تلفيق تهمة لعمي قد يكون سيفًا ذا حدين، فقبل أن تتابعوا، تأملوا جيدًا في العواقب.

لم يجد الحاضرون ردًا يوازي ثقتها الفائقة، بينما كان قاسم يراقب المشهد بصمت، وغضب حبيس ضلوعه فلم ينل رضاه ما رآه بل أثقل عليه أكثر كراهيته لها.

وقبل أن تهم بالخروج، اقتربت من والدها، قبلت يده بتواضع المحارب الذي أنهى معركته بسلام، ثمّ استدارت لتغادر، تاركة وراءَها وجوهًا متجهمة، فهذه كانت أولى معاركها التي انتصرت فيها، وكتبت في تاريخ آل الشرقاوي بصمتها كأول محامية في العائلة.

.....

بعد ما حدث كان يجب أن تُعاقب فعاد طيف الزواج ليظلل حياتها كحكمِ جائر، فُرض عليها دون إرادتها وكعقدة مشدودة حول عنق أحلامها، يسلب منها حريتها ويغلق أبواب الحياة أمامها، لهذا راحت تطالب برؤيتها عروسًا تُزف في موكبها إلى منزل زوجها، وكان جليًا للجميع أن دوافعها لم

تتجاوز رغبة جامحة في فرض سيطرتها، ومحاولاتها المستمرة لقمع ابنتها وهزيمتها لم تكن لتُخفي قوة عزيمتها وصلابتها. فهي لم تكن أقل صمودًا وعنادًا، فالجميع يعرف جيدًا من هي عظيمة! امرأة تجسد الصلابة والقوة الصعيدية في أبهى تجلياتها، وجهها محفور بتجاعيد الزمن، وكل خط فيه يروي قصة من القوة التي لا تقهر، عيناها الداكنتان، الغارقتان في عمقها، كانتا تتوهجان بحزم لا يلين، كأنهما تختبئان وراء سطوة لا يمكن تجاوزها، بشرتها السمراء أشبه بدرع فولاذي، تحمل صلابة الأرض التي نشأت عليها، صوتها يتردد كالرعد، لا يُبدي سوى الأوامر والتوجيهات التي لا يُعترض عليها.

لهذا استطاعت عظيمة الفوز في تلك الجولة، بينما كانت دليلة تغرق في بحر من اليأس، بعدما وافق والدها على موعد إعلان زفافها، لم تجد أمامها إلا أن تنحني قليلًا أمام هذا التيار الجارف كي تجد سبيلًا للهروب.

راحت تشعر وكأنّ قلبها يتعرض لنوبة من الرعب، والمشاهد تتسابق إلى مخيلتها كجمر ملتهب، كل ذكرى وحلم يحترق أمام عينيها، والشعلات تلتهم كل ما تراه ينبض، ووسط كلّ تلك الفوضى، سقطت كل الثوابت مرة واحدة، وما تبقى منها أخذ يحبو نحو رصيف الأمان عله يجد مخرجًا.

.....

تسللت الأيام عبر حياتها كخيوط ضبابية، محملة بالحزن، ولم يتبقَّ سوى أيام قليلة وتغفو داخل تابوت الزواج، غير أنّ القدر في لعبته الخفية نسج ميثاقًا جديدًا وقلب الموازين، ليوقظ في روحها حلمًا، حسبت أنه لن يعود.

قبل الزفاف بأيام قليلة، احتشدت الجموع من أهل القرية أمام منزل فاروق الشرقاوي، وهم في حالة من الذعر والخوف وأصواتهم تصيح: حريق...

الكلمة التي نهشت قلوب الجميع انتشرت كالنار في الهشيم، فعمت البلدة حالة من الفوضى، النساء تدفقن كطوفان، يحملن الجرار المملوءة بالماء، بينما الرجال هرعوا نحو الأراضي المشتعلة في محاولة يائسة لإخماد النيران قبل أن تلتهم كلّ شيء.

المشهد كان مهيبًا، سرق الألباب وأغرق الجميع في ذهولٍ جعلهم ينسون حتى الاتصال بشرطة الحرائق.، إلا أنّ دليلة ببديهيتها السريعة، بادرت بالاتصال دون تردد.

حين علمت بوصول والدها إلى مكان الحريق، اجتاحها الفزع وكأن الزمن قد تجمد في لحظة من الرعب، اتسعت عيناها كفوهتي مصباحين مطفأين، بينما تشوشت كل الأصوات من حولها.

بعد ساعتين من الكفاح، خمدت النيران أخيرًا، وما إن وصلها الخبر، حتى انطلقت كفرسٍ جامحٍ، تبحث عن والدها، حاولت والدتها منعها، لكن

نداءاتها ذابت في الهواء، إذ راحت الفتاة تسابق الكلمات والأصوات، مندفعةً نحو مكان الحريق، مصممة على الوصول مهما كلفها الأمر.

وصلت إلى المكان، عاجزة عن استيعاب ما رأته عيناها، تحولت الأراضي إلى كومة من الرماد الأسود، وكأن الحياة نفسها قد أُطفئت من تلك البقعة، تعالت صرخات الأهالي، حتى تصدح كإنذار بقدوم سنوات عجاف وحياة موحشة محفوفة بالحاجة والجوع.

شعرت بصدى متجمد يضرب أذنيها، وأصبحت غير قادرة على التقاط أصوات الاستغاثات أو صخب سيارات الإسعاف.

تطايرت المشاهد أمام عينيها كأشباحٍ من الماضي، وعادت إليها تفاصيل دقيقة جمعتها بوالدها، كأنّ الذاكرة تحاكمها بلقطات متسارعة، فلم يكن سؤالها سوى صرخة يائسة في داخلها: أين هو؟

ووسط الدخان الذي خنق الهواء والحرارة التي زحفت إلى كل زاوية، توقف العالم فجأة، لم تعد تسمع سوى دقات قلبها المتسارعة، حتى لمحته يتقدم نحوها، في تلك اللحظة، تحول الخوف الذي أثقل صدرها إلى رماد تطاير بعيدًا، انطلقت قدماها دون تفكير، لتعانقه بحرارة وهي تبكي، وكأنها وجدت في حضنه الأمان من كل هذا الخراب.

****

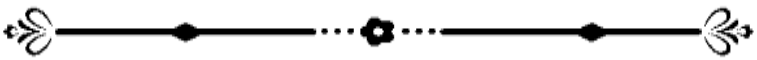

(5) حرب على وشك الاندلاع

بين كوابيس لا تهدأ وآلام تنهش الأفق، ينفجر الأمل كشرارة نار تحرق قيود الظلام وتشق دروب التحدي.

تم إخماد الحريق وأحاط الخوف الأرواح بقبضة من حديد، وجاء الحزن ليكسو سماء البلدة، أصبح الانتظار ضيفًا مرعبًا تتصاعد أدخنته كالجمر المشتعل داخلهم، غرق الجميع في دوامة من الخوف المتواصل، أغلقت البيوت أبوابها في وجه الكابوس الذي يترقب في الأفق وتوقفت الحياة في انتظار حكمٍ غير معلنٍ يتربص بهم، بدأ دخان الحريق في التبدد وهدأت الصراخات تدريجيًا، وعادت دليلة وأبيها إلى البيت وسط ترقب الجميع وقلقهم؛ فاستقبلتهم عظيمة بغضبٍ مؤلمٍ وجهته إلى ابنتها عندما تهاوت يدها على وجهها كالسيف أمام الجميع دون أن ترحم نظراتهم.

لتشعر بمرارة الإهانة، ليس فقط من الألم الذي نقشته أنامل القلم على وجنتيها، بل من العيون التي اجتمعت كأشباح تراقب انكسارها، وتلتهم لحظة ضعفها بكل قسوة. وكأنّ الزمن قد جمد، فوجدت نفسها عالقة بين لهيب الغضب ودوامة الخجل، تبحث عبثًا عن مكان تتوارى فيه ملامحها التي احمرّت كالجمر، فتراجعت وانزوت داخل غرفتها، حيث ساد صمت خانق ابتلع كلماتها قبل أن تخرج.

وقف فاروق في حالة يرثى لها، إذ أظلمت ملامحه تحت سحابة من الحزن، تعكس الألم العميق الذي يعصر قلبه، كانت الأجواء مشحونة بالترقب والقلق، والاضطراب يرقص على شفير الهاوية، بينما الجميع في حالة استعداد لما هو أسوأ، دون أن يجرؤ أحد على التنبؤ بما يخبئه المستقبل. وظلت الأسرار محجوبة وراء ستارٍ من الغموض، وسبب الحريق المدمر غارقًا في ظلال الظلام، لم تُكشف خيوطه بعد.

.....

سكنت دليلة غرفتها، تتجلى قسوة الانتظار داخلها، كظل مظلم يلتف حول روحها يكاد يخنقها، أصبحت كل لحظة تمر نذيرًا لأسوأ السيناريوهات التي ستقع، يغمر عقلها صورة الأرض الكاحلة والناس يشاهدون أراضيهم تغرق في بحر من النار، لم تنتظر كثيرًا حتى بدأت الحلقة الأولى من مسلسل الانتقام، عندما ارتفعت الأصوات في الخارج لتكشف عن تصاعد الأحداث، حيث بدأ قاسم يصرخ محرضًا الجميع على التحرك بجديةٍ وبسرعةٍ لتأمين المنزل والأراضي التي تملكها العائلة، خرجت مسرعة، وقفت أعلى الدرج تشاهد ما يحدث، قاسم يقف بجانب أبيها، يصيح عاليًا مردِّدًا:

أعلم فاعلها يا أخي، تلك المرأة فعلتها انتقامًا منا.

أخذ فاروق نفسًا عميقًا كمن يحاول أن يستعيد قواه وأردف قائلًا: ليس الوقت المناسب لنقذف التهم، يكفي ما سنعانيه الفترة القادمة.

قاطعته عظيمة باستياءٍ شديدٍ، مشيرة إلى أن تسامحه مع زوجة ابن عمه هو ما أوصلهم إلى هذه الأزمة، مؤكدة أنها هي من خططت لإشعال الحريق انتقامًا من العائلة.

ابتعد فاروق عنهما وقد بدأ يشعر بالتعب؛ فاستطردت عظمية قولها قائلة: لا تفكر بعيدًا، لقد عرضت عليها أن تتكفل بولدها مقابل أن ترحل عنا بخطيئتها، لكنها لم تستمع إليك وظنت أننا سنتراجع عما كنا سنفعله منعًا من كشف سرها.

لم يجبها فاروق فالألم يسكنه بقوة، حقوق العمال التي انتهت في رقبته وحده، عليه أن يُعيدها مهما كلفه الأمر.

.....

راحت تستمع إليهم عاجزة عن التأقلم مع أفكارهم التي لا تُولد سوى بحور من الخراب والدم. كانت تحاول بكل ما أوتيت من قوة التمسك بهويتها التي ظلت تجاهد لبنائها وسط العواصف، لكن تلك العادات القاتلة ظلت تتربص بها كسمٍ بطيء، تسعى لإفساد كل ما زرعته من أمل، وكأنّها معركة دائمة بين الماضي الذي يحاول أسرها والمستقبل الذي تنشده.

حاول قاسم نبش البلدة رأسًا على عقب؛ فالشرطة لم تصل إلى سبب إشعال الحريق ومن أين بدأ، الأمور تسير في طريق مجهول، لا أحد يعلم سرها وعاقبة فعلتها.

لهذا لم يتباطأ في البحث داخل منازل القرية، الجميع يطبق قانونه في صمت مرعب، أصبح الهواء محملًا برائحة جريمة جديدة، هكذا تشعر دليلة وهي تترقب بفزع ما قد تسفر عنه الأحداث؛ فهناك صوتٌ يهمس بسر مروع، الجميع على وشك أن يسقط في دائرة الشك.

عاقبة تلك الحادثة، ظل أهل البلدة يرزحون تحت وطأة القهر، وجوههم مرسومة بخطوط الألم والعجز، أرواحهم مكبلة بقيودٍ لا تُرى، تحمل في طياتها عقودًا من الظلم المتوارث. ومع انقشاع تلك السحب القاتمة وتبدد الوقت عادت قضية زواجها تطفو على السطح مجددًا، كجرحٍ قديمٍ أُعيد فتحه، لتدور عجلة القدر نحو مصير لم تتوقعه، يُثقل صدرها بشعورٍ خانق وكأن الأقدار تتآمر لانتزاع حريتها بقوة، فتسرق منها عامًا دراسيًا كاملًا، ما جعلها تتراجع خطوة إلى الوراء، لكن عزيمتها لم تُهزم، بل عادت أقوى لتواصل دراستها، مُبرهنة لوالدها صلابتها وإصرارها على أن تصبح محامية لعائلة الشرقاوي.

وقد شهد لها ما فعلته مع عمها قاسم، حيث أثبتت براءته ببراعة، حين تتبعت الأخبار في الجريدة، فغمرها حافز البحث والفضول، مما دفعها للوصول إلى خيط الحقيقة، لتكشف بذلك كذبتهم الملفقة وتفضح مؤامرتهم الماكرة.

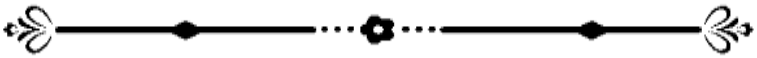

لذلك، قدمت وعدًا مشروطًا لوالدها، حيث وافقت على قبول قرار زواجها على أن تنتهي أولاً من دراستها، لتواصل مسيرتها نحو هدفها دون أية عوائق، ولتضمن دعم والدها الكامل في قضيتها.

.....

فربحت جولة من جولات النضال، وبنت جسرًا نحو آفاق جديدة، حيث أكملت سنوات دراستها بنجاح وحصلت على منحة دراسية فتحت لها أبواب الجامعة، فأصبحت ترى العالم من خلال عدسة أكثر صفاء ووضوحًا، كأنها تراهن على الفجر الذي يكشف كل الظلمات. تصدت بحزم لكل العادات البالية، تسعى لتحطيمها بإصرار لا يتزحزح، كالسيف الذي يقطع الظلال، هذا التغيير في رؤيتها جعلها فريسة لغضب عظيمة وقاسم، اللذين انقضا عليها كعاصفة هوجاء، محاولين إغراقها بموجات من التحديات لثنيها عن مسارها.

وفي أحد الأيام، تعالت التهليلات في ساحة الدار، كأنها ترانيم جهل تصدح في فضاء يعج بالخطيئة، انهمكت النسوة حول أوانٍ ضخمة يتصاعد منها البخار كضباب يحجب بصيرة العقول، يفرشن الفرح المصطنع بأيديهن، بينما تطغى رائحة الطعام على أنفاس المكان، في محاولة للتغطية على ما هو أشد قسوة.

وقفت دليلة على مسافة، كأنها غريبة عن هذا المشهد المريب، إحساس غامض راح يهمس في أذنها بأن وراء هذا الضجيج يكمن أمر يمسها، ربما زواج، وهو الكابوس الذي يثير بداخلها كل ألوان الغضب.

لكن ما جعل الدم يتجمد في عروقها لم يكن فكرة زواجها؛ بل رؤية الطفلة التي لم تتجاوز الثالثة عشرة، تتقدم بين النسوة كدمية معدة للبيع، مزينة بمصوغات ضخمة، تغرق جسدها الصغير، ووجهها الملطخ بالألوان جعله أقرب لعروس المولد، لكنّه أبعد ما يكون عن البهجة.

تابعت المشهد بعيون متوجسة، ترى الطفلة تُقاد نحو غرفة مظلمة، كأنها قربان يُساق للذبح، انطلقت الأهازيج فجأة، لتحمل نذير شؤم يمزق صمت المكان، تلاحقت الصور في ذهن دليلة، عادت بها الذاكرة إلى طفولتها المأساوية، إلى الحادثة التي سرقت منها براءتها وجعلتها شاهدة عاجزة على جريمة ارتكبها الجهل باسم العادات، لكن هذه المرة، لن تكون شاهدة صامتة.

تحركت بخطوات ثابتة نحو الغرفة الخلفية، وجهها المكفهر يشتعل غضبًا ولكن فجأة، اعترضتها حفيظة، زوجة عمها، وهي تنظر إليها بازدراء وقالت بصوت حاد:

إلى أين تذهبين؟ هذا ليس شأنك!

حفيظة، ضلع الكراهية الذي طالما حاصر دليلة، لم تكن لتفوت فرصة لإذلالها، لكن دليلة، بنظرات تشتعل تحديًا، دفعت يدها بقوة جانبية وصرخت: هذا شأن كل من بقي بداخله ذرة إنسانية!

دفعت الباب بعنف، لتتوقف النسوة عما كانوا يفعلونه، وعيونهن تتسمر عليها في ذهول، وفي وسط الغرفة، كانت الطفلة ممددة على الفراش، ترتجف كطفل رضيع، أخذت تقترب منها وهي تنظر إليها بعينيها اللتين اختزنتا ألمًا مشابهًا، وكأنّ القدر أرسلها هنا لتمنع تكرار الجريمة.

تقدمت نحوها، حملتها بين ذراعيها، واستدارت نحو النسوة قائلة بصوت غاضب:

إذا اقتربتن ستعرفن غضبي! لن أتردد لحظة في جعل القانون يطاردكن جميعًا!

الصدمة كست وجوه الحاضرات، وساد الصمت كضربة خنجر مزروع في القلوب، خرجت دليلة من الغرفة، تحمل الطفلة، تضمها بقوة وغضب مستعد ليطيح بمن يقترب منها، وقفت وسط ساحة الدار، وصرخت بصوت يصدح كالرعد: لماذا تنجبن إن كنتم تقتلونهن؟ الجهل أعماكم عن أبسط الحقوق، لكني أقسم أن هذه الجريمة لن تتكرر طالما أنا هنا! هناك من يحافظ على حقوق هؤلاء الأطفال وسأخبركم تنبيهي الأخير، إذا حدثت تلك الجريمة مرة أخرى، سأعمل على أن تمتنعن من رؤية بناتكن عقابًا على قسوة قلوبكن بهن، وهذا وعد مني بذلك.

ارتعدت النسوة وانسحبن، يتناقلن همساتهن الخائفة، وبينما كانت دليلة تستعد للعودة، جاءها عمها قاسم كعاصفة، وصفعها بقوة أطاحت بها أرضًا، لكنها رغم السقوط، رفعت رأسها ونظرت إليه بعينين تحملان وعدًا صامتًا: لن أتوقف حتى تتوقف تلك الجرائم.

****

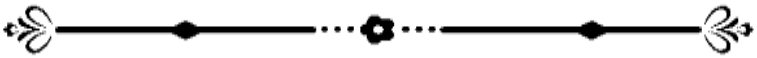

(6) رحيل مع إيقاف التنفيذ

اشتدّ النزاع بين دليلة وعمها حتى أصبح العقاب محتمًا، فجاءت الصفعة كتحذير أخير لعاصفة وشيكة، تصاعد الغضب في أرجاء المنزل، عظيمة تكبح غضبها بصعوبة لتحافظ على هيبة العائلة، وحفيظة تدور كطيفٍ جاثم، حضورها يطغى على الأرجاء كأنها نذير عاصفة وشيكة، عيناها تقدحان شررًا، وخطاها تقرع الأرض كأنها طبول الحرب، أما قاسم فقد أحكم قبضته على الأمر، متكئًا بثقة تعكس سيطرته الكاملة على المشهد.
جلس مع فاروق في غرفة الضيافة، أجواؤها مشبعة بصمتٍ ثقيلٍ، يتبادلان النظرات الحذرة والكلمات المحسوبة.

النقاش يدور حول مصير ابنته، وكأنّهما يضعان قدرًا على نار هادئة، يراقبان غليانه بخبث، قاسم بملامحه الجامدة ونبرته الواثقة، بدا وكأنه يمسك بخيوط اللعبة كلها، بينما فاروق يتمايل بين الحذر والامتثال، يدرك أنّ مصيرها لن يكتب إلا بما يُقرره هو.

وبين كلّ تلك الأجواء الثائرة، لم تدرك دليلة فداحة فعلتها وأنّها أشعلت نارًا لا تنطفئ، مما جعل الجميع يرمقونها بنظرات ملؤها الاستياء والرفض.

خرج قاسم ووجهه مكفهر، يحمل حنق سنواتٍ متراكمة، وصوته الجهوري يمزق السكون وهو يصرخ على حفيظة لتلحق به، في تلك اللحظة وقفت

عظيمة تراقب المشهد، عيناها تنجرفان نحو الغرفة حيث وقف فاروق جامدًا، ينظر إلى أخيه نظرة وداعٍ خفي.

لم تحتَج للسؤال، قرأت ما دار بينهما في صمتٍ، وتبادلت مع زوجها نظرات ملؤها الهم، تحمل كلّ ما يعصف القلوب، رفض مستتر، قمع موروث، غضب متأجج، واستياء عارم، كلها تدور في دوامة واحدة، تردد اسم دليلة كأنها مركز هذا الصراع الذي لا ينتهي.

.....

علمت دليلة بالخلاف الذي نشب بين والدها وعمها، لكنّها لم تُبالِ سوى بحال والدها، ذلك الضيق المطبق الذي أحاط به كغيمةٍ سوداء، كان الاستياء باديًا في عينيه، لكنّه لم ينهرها أو يعاتبها؛ بل اكتفى بصمتٍ موجعٍ كعقابٍ أشدّ من الكلمات.

لم تستطع تحمل عقابه، فقد كان كالغصة التي تؤلم قلبها وتجعلها تشعر بوحدة تمزق بقاياها، وفي ظل شعورها بالحزن مما حدث، جاءتها مكالمة بتأكيد التحاقها بالجامعة، تراكمت داخلها مشاعر الفرح والحزن معًا، فتلك هي اللحظة التي انتظرتها طويلًا.

تحولت حياتها من صراع مع خصم إلى مواجهة مع عدو يسعى لتدميرها؛ ففي ليلة وضحاها أعدت ولدتها ولائم خُطبتها التي قررها الجميع دون العودة إليها، رأتهم يعلقون الزينة، وألوان البهجة تنتشر في كلّ مكان، وهي تنتظر أن يأتي من يحملها ويضعها داخل تابوتها.

امتلأ المنزل بالنسوة اللاتي يغنين أغاني الأفراح، لم تعارض ما يحدث، فوجعها الأكبر كان غضب والدها منها وابتعاده عنها، فما عادت تبالي بضرباتهم.

خرجت من غرفتها، وقد ارتدت الملابس التي اختارتها لها شقيقتها، وكأنها تُجهز للوداع لا للاحتفال، وقفت بين الحشود، زهرة اقتلعت قبل أن تزهر، تتوارى خلف ستار من الصمت العاجز، الجميع حولها يحتفلون بمستقبلٍ رُسم دون مشورتها، جالت بعينيها بين الوجوه الزاخرة بالابتسامات المصطنعة، تبحث عن والدها بعينين شاردتين تائهتين، تقاومان دمعًا إذا سقط سيطغى على ملامحها وجعًا.

اجتمعت النساء حولها كالأمواج العاتية، تتمايل ألوان أثوابهن مع تهليلاتهن الحادة التي شقت السماء، الدفوف والطبول تدق بإيقاع كأنها تُعلن عن انتصارٍ قديم، تغمرهن أغاني الفرح، كأن المشهد يُعيد فصلًا من الماضي، لتتغير طرق الموت والضحية واحدة.

وفيما كانت تصارع نفسها لاحت لها نظرات والدتها وحفيظة، تقفان وسط النسوة، عيونهما تُراقب بحذر، تتلذذان بمشهد انكسارها.. تتنهد بثقل يكاد يُطبق على أنفاسها، كيف يمكن لنظرات الأم أن تخدع القلوب بهذا الشكل؟ كيف للأمان أن يتحول إلى سجنٍ بارد يُطفئ بريق الحب؟ أمرٌ لا مفارقة فيه، لكنه جعلها تشعر بوجيعة لامست روحها.

ظل فاروق حبيس غرفته، ينتقل حزنها إليه دون حتى أن يراها، يعلم بنزيفها الذي لا يشعر به سواه، كم هو حزين أن يُهدم جدار الحب والثقة بين أب وابنته، بين رجل صارم كالصخر وابنة ستظل الطفلة كلما أخطأت ارتمت في أحضانه مختبئة من العقاب، دارت حوله السنوات رآها كيف تحبو نحوه ممسكة بعباءته، تلتف بها كغطاء لها، يحميها من قسوة الحياة.

وفجأة كأن البرق شق صدرها، ارتجت أنفاسها وتبعثرت أفكارها في لمح البصر، شعرت بنارٍ تشتعل في أعماقها، نظرتها تجمدت في الأفق، وصوت داخلها راح يصفعها كي تفيق.

قامت فزعة، توجهت نحو غرفة والدها، لكن أوقفها القدر بلقاء اشتاقت له حين رأته يهبط من أعلى الدرج، ممسكًا بعصاه ويسير بهيبة خطفت لُب قلبها، افترشت ابتسامتها سريعًا على ثغرها، شعرت بولادتها من جديد، وحين وقف أمامها أردف بصوت عالٍ:

مبارك يا حضرة المحامية، رفعتِ رأس العائلة.

في تلك اللحظة غمرها شعور الحرية حينما نطق والدها بالموافقة، كأنّ جناحين خفيين انبثقا من روحها، فرفرفت آمالها إلى آفاقٍ جديدة، وفي المقابل، تسللت الصدمة إلى قلب أمها كطعنةٍ باردة، وارتسم الحزن على وجهها مثل سحابة ثقيلة حجبت النور عنها، إذ شعرت أنّ ابنتها تتحداها وعلى وشك الفوز بمعركتها ضدها.

.....

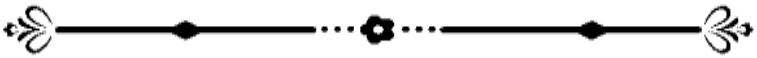

قبل السفر بعدة أيام

اجتاح الغضب عظيمة كعاصفة هوجاء حين وصلها خبر سفر ابنتها، فحاولت بكلّ ما أوتيت من قوة أن تقنع فاروق بالتراجع عن قراره، لكن محاولاتها باءت بالفشل الذريع. بينما تدفقت سعادة دليلة في عروقها كأنها نهر جارٍ، وهي تحقق حلمها في دراسة المحاماة، محطمَّة القيود والعادات التي حبستها طويلًا.

فلم يكن هذا الإنجاز مجرد انتصار شخصي؛ بل ثورة تهز عرش كل من يحاول محو نجاح الفتيات، ويظن أنهن مجرد مكملات للرجل.

ها هي تفتح أمامها بابًا لمستقبل رحب، بلا قيود، وتخطو بخطوات جريئة في عالم وراء أسوار قوانين عائلتها التي كانت تحاصرها.

لكن عظيمة، التي لا يعرف اليأس إلى قلبها سبيلًا، لم تتراجع خطوة واحدة، كان عنادها أعظم من أن يتصوره أحد، عناد متصلب لا يتزعزع، كأنه صخر لا يلين، لكنّه عناد محكوم بفكر جمودي، مسكون بقوانين وأعراف عائلية صارمة، كأنها ميثاق مقدس لا يتفكك إلا بموت صاحبه، لا يعترف ببديل ولا استثناء. فهي ترى في الانصياع لهذا الإرث العائلي واجبًا مقدسًا، الطريق الوحيد للحفاظ على تماسك الأسرة، غير عابئة بالأصوات المتمردة التي تهتف من بعيد، ساعية إلى تحطيم أسوار هذا التقليد الراسخ الذي لا يمكنها تخيله إلا كعقيدة لا يمكن نقضها.

لهذا ذهبت إلى منزل قاسم، تتشاور معه في أمر سفر دليلة إلى القاهرة، لكن لم يكن هو الآخر بحاجة لتلك الطاقة كي يعيقها عن تحقيق هدفها، فقد نسج كلاهما خطة محكمة لعرقلة سفرها، إذ قررا أن يمارسا ضغوطًا هائلة عليها، مستغلين كل وسيلة متاحة لإقناعها بالتخلي عن دراستها، كانا يهدفان إلى إحاطتها بشبكة من التهديدات والوعود الكاذبة، مدفوعين بخوفهم من أن تكتسب قوة وتجربة خارج حدود تقاليدهم الضيقة.

لم يدركا أن فاروق كان يقف خلف الباب، يستمع لكل كلمة تتسلل بينهما، يتجسس على خططهما المظلمة. هذا المشهد ترك في قلبه أثرًا من الحزن والخيبة، وهو يرى شقيقه يحاول سحق حلم ابنته الذي لطالما حمله بين جوانحه، حلمًا طالما تمناه بأن يرى ابنته ترتقي في سلم العدالة وتصل إلى مكانة مرموقة، ليحقق بذلك نبوءة الشيخ رمضان، شيخ المسجد الذي قال له ذات يوم: "إنك ستنال في الدنيا من يحمل اسمك بكل فخر، ويرتقي به إلى أعلى المراتب".

لكن الشعور الأقوى الذي كاد يفتت قلبه في تلك اللحظة كان مريرًا: زوجته، التي ظن أنها ستكون الدرع الواقي له في مواجهة العاصفة المقبلة، ها هي الآن تساهم في تحطيم ما بناه، وتخونه في اللحظة التي كان فيها يحتاج إليها أكثر من أي وقت مضى.

دلفت حفيظة إلى الغرفة، وقفت تحول بينهم كي لا يحتد الصراع أكثر، لكن عظيمة هزمها الصمت ونال الغضب منها فتحدثت دون هوادة: لن

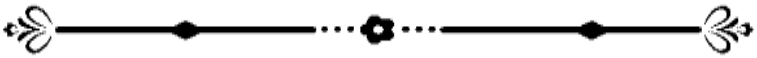

أقبل بسفر دليلة يا فاروق، ما تفعله يخالف تقاليدنا وصورتنا وسط العائلات، أنت تعاملها كأنها الصبي الذي يحمل اسمك، لكنّها ليست كذلك يا كبير العائلة، إنّها ستقمع تاريخنا بما تحاول فعله، تلك الفتاة لعنة، ليتني لم ألدها.

أيد قاسم حديثها، واحتدم الخلاف أكثر كعاصفة هوجاء، حيث تبادل الطرفان الاتهامات بحدة وشدة، وكأنّ كلّ كلمة سيف مسلط على الآخر.

****

(7) القـــاهـــــرة

"نولد من رحم الحياة مرة واحدة، لكننا نموت في أحشائها ألف مرة"

لم يتحدث فاروق مع زوجته، ولم يُفصح أحد منهما عما حدث، امتلأت الأجواء بشحنات فائضة من القلق والهمسات الجانبية، يتساءلون بفضول متزايد ماذا بين فاروق وقاسم؟ ولم تتوقف ألسنة النساء عن الثرثرة حول دليلة وانتقالها إلى القاهرة، كأن رحيلها شرارة أشعلت نيران الحديث في قلوب سئمت الرتابة، فحياتهن أقرب إلى صفحة ساكنة، تُقلبها الرياح على نفس النمط الرتيب وهو زواج الفتاة، ثم إلقاء عبء المسؤوليات على كاهلها دون تفكير أو إدراك لمعنى تلك المسؤوليات أو وزنها.

غفلن عن أن القرار الذي يُسلب من الفتاة هو ذات القرار الذي يصنع ملامح مستقبلها، وكأنهن تعامَين عمدًا عن حقيقة أنها الأساس المتين للأسرة، الأم التي تُربي، المعلمة التي تنير العقول، والمرشدة التي ترسم طريق الأجيال.

لكنهن برغم كل ما تغير في العالم، أضعن جوهرها الحقيقي، تركوها وحيدة في مواجهة مصيدة مجتمع يقضم روحها بصمتٍ قاتل، كصدأ يزحف ببطءٍ، ينهش كلّ ما تبقى فيها من أمل وحياة، تاركًا خلفه فراغًا موحشًا لا يُسد.

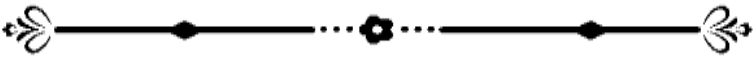

ليلـــــة السفـــــر

انتهت دليلة من تحضير حقائبها، تركت غرفتها التي لطالما حاصرتها بجدرانها الباهتة وانطلقت نحو سفينة أحلامها، لكنّها في سريرة نفسها قررت خوض محاولة أخيرة كي تجعل قلب والدتها يلين قليلًا، وقفت أمام باب غرفتها، يعلو وجهها التردد والحزن، دفء أشعة الشمس كان يتسلل عبر الشقوق في الجدران، لكنّها لم تكن كافية لتخفيف برودة اللحظة التي تعيشها، حاولت أن تخفي ارتعاشة يدها وهي تطرق على الباب برفق، تُطلق كلماتها بصوت يكاد لا يُسمع:

أمي، أحتاج إلى وداعك قبل أن أرحل.

مرت لحظات ثقيلة، كأنّ الزمن توقف في فم لحظة صمت قاتل، قبل أن ينفتح الباب ببطء، كما لو أنّ كلّ شيء في الكون كان ينتظر هذه اللحظة الحاسمة، رأت دليلة أمها جالسة على حافة الفراش، عيناها شاردتان في فضاء لا يمكن للعقل أن يطال أطرافه، وكأنّ كل شيء حولها قد اختفى، لم ترفع عينيها نحوها، ولا حتى نبضة قلبها اهتزت لتبدي بعض الاهتمام، كانت نظراتها عميقة وباردة، وكأنها تنظر إلى فجوة سحيقة بينهما، مليئة بالحزن والغياب.

الصمت كان أبلغ من أي كلمة، فاخترق الأجواء كأنه صدى الفراغ الذي انفصل بينهما.

تقدمت دليلة خطوة واحدة، محاولة أن تتجاوز جدار الجمود الذي احتجز أمها، محاولة أن تفتح نافذة الأمل في هذا الصمت القاسي. همست بصوت يكاد يضيع بين أنفاسها:

لا تغضبي مني، أتمنى لو كنتِ بجانبي الآن.

في تلك اللحظة، هيهأت أن تتغير ملامحها، فقد ظلت جامدة كالحجر، عيونها فارغة من أي تعبير، كأنها قد أسلمت نفسها لعدم الوجود. كانت تقف كأثرٍ من الماضي، شبحًا لا يملك من نفسه إلا البقاء.

شعرت دليلة أن قلبها قد تمزق إلى أشلاء غير مرئية، وجدت نفسها تائها بين كلمات لم تجد سبيلًا إليها. ولكن بدلاً من الكلام، أدارت ظهرها ببطء، دموعها تتناثر في عينيها كألماسةٍ تضيع بين الأفق، ثم غادرت الغرفة في صمت عميق، أغلقته وراءها كما لو أنها تغلق فصلاً كاملًا من حياتها.

سارت في الممرات نحو المجهول الذي ينتظرها، محملة بأثقال الفراق، صداه يتردد في أذنيها كأصداء رياح عاتية. بينما كانت تتنقل بين جدران الذكريات التي تصدعت أمامها، وكأنّ الزمن قد اختطف منها اللحظات الحية، تراقب الذكريات تتناثر أمامها كغيمةٍ تائهة. ثمّ هبت عاصفة من الألم لفحت روحها، فأدركت أنّ طريقها لم يعد معبّدًا بالأماني، بل مليء بالقرارات التي ستحملها بين يديها. ها هي تبتعد عن جدران الماضي، نحو

مستقبل تسكنه الأمل والتحدي، تحطم قيودها، وتحرر نفسها من أسر تقاليدها، لتصنع حياة جديدة بنفسها، تُحلّق نحو الحرية المنتظرة.

تقدمت إلى الأمام، نظرت إلى والدها الذي كان ينتظر عناقها، وقف بهيبته ينظر لها بفخر، ها هو حلمه يتحقق أخيرًا، ابنة فاروق الشرقاوي المحامية، حلم تمنى كثيرًا رؤيته، فتح لها ذراعيه، عانقها بقوة كمن لم يرَها منذ سنوات، تمالك واستجمع قواه كي لا ترى وجعه، لكنّ مقلتيه الجارحتين بالدمعات كشفتا أمره سريعًا، لامست أصابعها وجنتيه، عانقته بلهفة مشتاق، ثم اعتدلت أمامه وبقوة ظهرت في كلماتها قالت:

سأعود ومعي شهادتي يا أبي.. صمتت هنيهة، ثمّ استطردت قولها من بين الدمعات المنهمرة: لن أخذلك أبدًا، لن أجعلك تندم أنك سمحت لي بتحقيق حلمي.

ربت على كتفيها قائلًا بثقة: سأنتظر عودتكِ يا حضرة المحامية.

كم تسعدها تلك الكلمة، عندما يناديها بها، تفترش سعادة العالم بين ضلوعها، حتى تكاد تشعر إنها كطائر السنونو.

نادى فاروق على الحرس، أمرهم بحمل الحقائب ووضعها خارجًا، استدار لها مرة أخرى وقال بحزم: في القاهرة سيستقبلك شاب... هو ابن صديقٍ للعائلة، يعمل في القاهرة، أثق به كثيرًا، سأطمئن لوجوده بالقرب منكِ لحمايتكِ، سوف تسكنين في المبنى نفسه، فلقد أخذت لكِ الشقة المقابلة

له، كي يبقى قريبًا حين تحتاجين لشيء، ستجدين فتاة هناك سوف تسكن معكِ وتوفر حاجتك.

شعرت بالطمأنينة؛ فوالدها عيّن لها حارسًا خاصًا لمتابعتها، اختلج صدرها شعورٌ غريبٌ، أخذت تتأمل المكان وكأنها تحاول أن تحفره في ذاكرتها، تحاصرها مشاعر متضاربة، ذكرى مؤلمة تلفها بحنين مرير تارة، وفرحة عابرة تخفف ثقل الغصة تارة أخرى، لكنها لم تستطع أن تهرب من شعور الخوف الذي تسلل إلى قلبها، قلقة مما تخبئه اللحظات القادمة.

ابتلعت غصتها بصعوبة، وما إن همّت بالخروج حتى تناهى إلى مسامعها صوت طرقات العصا المألوفة، صوت يحمل معها رهبة خفية.

رفعت رأسها لترى قاسم يقف أمامها، ملامحه كملامح ثور هائج يحاول جاهدًا كبح جماح غضبه، وعيناه تحملان نظرة لا تخطئها العين، أخذت نفسًا عميقًا، ثم وجهت له نظرة تساؤل صامت.

في تلك اللحظة، تقدم فاروق نحو شقيقه قاسم الذي وقف إلى جوارها، لم تكن تعرف ما يدور بينهما عندما اقترب قاسم من فاروق وعانقه، همسا بصوت خافت لم يصل إلى أذنيها لكنها شعرت بأن الحديث يحمل ما هو أكثر من الكلمات، فجأة، ابتعد قاسم وألقى بكلماته الحادة: لن يولد خلاف يا أخي يجعلنا نفترق، لكن تذكر، دليلة ابنتي أيضًا، ومسؤوليتي حمايتها.

خفق قلبها بعنف، شعرت أن تلك الكلمات لم تكن سوى غلاف لخطة خفية تحاك ضدها، ثم تحولت نظرات قاسم إليها، عينيه تخفيان خبثًا لم يحاول إخفاءه، اقترب منها، وضع يده على كتفها وقال بنبرة ظاهرها الهدوء، لكنها تحمل تهديدًا مستترًا: لا تنسي أن أعيننا ستظل تراقبك، ولن أقبل بأي خطأ، تعلمين العواقب.

شعرت بدمائها تغلي تحت وطأة كلامه، لكنها لم تستسلم، رفعت رأسها بشجاعة، تحدت نظراته وقالت بصوت واثق: ابنة فاروق لا تخطئ، سأعود إليكم حاملة شرف العائلة، ينير طريقي ويدي مرفوعة بشهادة تحمل اسم المحامية دليلة.

أنهت حديثها بقوة، ثم تجاوزته بثبات، اتجهت نحو والدها، مالت على يده، قبلتها بحنان، وكأنها تطلب دعاءه في صمت، دون أن تنظر خلفها، خطت نحو الخارج، حيث ينتظرها قطارها الأول في رحلة التحرر، مودعة كفر الشرقاوية بثوبه القديم، ومعلنة بداية جديدة لها ولحياتها.

****

(8) محـــطة قطـــار

الانتظار... قد يكون عدوًا لنا، أو فرصة لإعادة الأمور إلى نصابها قبل أن نقع في الخطأ.

خطت دليلة أولى خطواتها على أرض الواقع الجديد، وقفت على رصيف المحطة، تنظر حولها وكأنّها ترى بوابة لعالم آخر، عالم ينبض بالحياة ويتنفس الانتظار.

اختفت نظرات الحزن التي غادرت بها منزلها، راحت تنظر إلى أعلى تتفقد سماءها الجديدة، بينما الزحام من حولها يعج بطاقة تكاد تعانقها استقبالًا بقدومها.

ترى صفوف القطارات تقف كالعمالقة الصامتة، أجسادها المعدنية تلمع تحت أشعة الشمس، وصوت صفيرها يشق الهواء كنداء غامض، المقاعد تضج بالبشر، ورائحة الحديد الممزوجة بالدخان تملأ المكان بعطر المسافرين، أخذت تتجول بعينيها في المكان وقد سقط من ذاكرتها أنّ هناك من ينتظرها ليقلها إلى المنزل الذي أعده والدها، وقبل أن تلتفت بحثًا عنه، شعرت بيد تجذبها فجأة بعيدًا عن طريق إحدى الدراجات البخارية، فتعثرت قدماها وتمسكت بذراعه بقوة. التقت العيون، لحظة روت الكثير مما لا يمكن التحدث به، نظرة جريئة امتلأت بالقوة، لتحمل مزيجًا من

الصلابة والهدوء، وكأنهما قطبان متنافران، يتصارعان في محاولة يائسة للانجذاب رغم التباعد الجارف بينهما.

بسرعة اعتدلت مبتعدة عنه، شاعرة بربكة وخوف، مما جعلها تنظر حولها في قلق.

وقف الشاب بثقة وبهدوء قائلًا: أنتِ دليلة!

نظرت إليه وقد ازداد توترها، انتقل بصرها بينه وبين يده التي ظلت مرفوعة في الهواء حتى وضعها جانبًا، وأردف قائلًا: أعتذر عما حدث، من المفترض أن يقلك السائق إلى المنزل، لكن مرضت زوجته، لذلك جئت لاستقبالك بدلًا عنه.

بدأت تستعيد رباطة جأشها وتحدثت بنبرةٍ جادةٍ: من تكون؟!

أخذ نفسًا عميقًا وأجابها قائلًا بزفرةٍ ساخرةٍ: أنا حارسك الشخصي الذي سيحرص حياتك، أرسلني الكون للترحيب بكِ.

شعرت بالضيق وقد أزعجها سخريته من سؤالها، أخذت تُجيبه بنظرات من الغضب والذهول رُسم على ملامحها. للحظة شعرت بشيء يتصارع داخلها، بين فضول مجهول يجذبها وخوف يغمرها، أفكار عابرة تتداخل، كأنها تسير على حبل مشدود بين العادة والتمرد، تتساءل إن كانت هذه هي لحظة بداية كسر القيود، أم تشابك جديد يخشى قلبها مواجهته.

أخرجها من تيه أفكارها صوته الحازم قائلًا: هيا سنتأخر عن الوصول في الموعد المحدد.

راح يتحدث بنبرة حادة تقطر صرامة، وحركته السريعة حين انتزع الحقيبة دون أن يكلف نفسه النظر إليها، كانت كافية لتزيد من برودة الموقف. تقدّم بخطوات ثابتة، تاركًا إياها خلفه، متسمّرة مكانها في حالة من الذهول الممزوج بالوجوم. استدار فجأة، عينيه تحملان أمراً لا يقبل النقاش، وقال بصوت جاف: "هيا، أمامنا زحام، وعلينا الوصول سريعًا".

في تلك اللحظة، كانت بذرة حلمها تشق طريقها نحو النمو، رغم أن طريقها يكتنفه المجهول، رفعت بصرها إلى الأعلى، حيث مباني القاهرة الشاهقة تمتد كأنها تناجي السماء، واجهاتها الزجاجية تتلألأ تحت وهج الشمس المتسلطة، الأرصفة تعج بخطوات متسارعة، وصدى ضجيج لا ينقطع يملأ الأجواء.

امتزجت روائح التوابل والعرق والمسك مع أنفاس المدينة المتلاحقة، وكأنّ القاهرة تكتب رواية أسطورية بحروف صاخبة ونبض لا يعرف السكون، وبعد مرور خمس وأربعين دقيقة، توقفت السيارة أمام مبنى عالٍ، حيث أظهرت بوابته الزجاجية فخامة ورسومات المدخل، لم تصدق أنها ستقيم هنا، ابتلعت السعادة كلماتها، وظلت تنظر له بانبهار، كلّ شيء يدعوها لحياة تنتظرها، والآن امتلكت الفرصة لتعيشها.

حمل الشاب الحقيبة متوجهًا نحو البوابة، وقفت لبرهة يحاول عقلها أن يستوعب ما يحدث، حتى اقتحم صوته مخيلتها ونادى عليها قائلًا: هل

ستظلين في هذه الدهشة طول اليوم؟ تبدين فتاة صغيرة لم ترَ العالم الخارجي يومًا.

تقلصت شفتاها بخجل، وغرزت أنيابها في كفها، كمن يحاول قمع انفجار داخلي، عيناها تلمعان بوميض من الغضب، قلبها يتسارع نبضه في صمت عاصف، بينما تتأمله متماسكة بقدر ما تستطيع كي لا تظهر غضبها.

.....

صعدت إلى الأعلى، خطت داخل الشقة وهي في حالة من النشوة، كان وقع اللحظة كعزف موسيقى متقن، حيث قابلتها أجواء الفخامة البسيطة، أرضيات خشبية لامعة، جدران مزينة بألوان دافئة، الأثاث أنيق وبسيط، أشعرها براحة، ابتسامة رُسمت برقة على ثغرها، جذب انتباهها النافذة الكبيرة التي تمتد من الأرض إلى السقف، كم كان المنظر مهيبًا عندما اقتربت منها، تنفست بعمق، وأمام عينيها انفتحت بانوراما العاصمة بأسرها، برج القاهرة كان يلوح في الأفق، شامخًا كعمود من النور، بينما النيل يتلوى كحبل فضي بين أحضان المدينة، وكأنها بكل ما تحتويه من أسرار وتاريخ تمد لها يدها عبر النافذة، تدعوها لاكتشاف كل زواياها وتفاصيلها، لم يقاطعها هذه المرة؛ بل تركها للحظاتها الطفولية التي جعلته يتأملها في صمت، تاركًا زهو اللحظة يطوف حولها مستمتعًا به.

في منزل فاروق الشرقاوي

صعد فاروق بخطوات متثاقلة نحو الغرفة التي سجنت فيها عظيمة نفسها، أرهقه التفكير في استعادة روحها التي باتت أسيرة الغضب، وقف أمام الباب لحظة، طرق بخفة ثمّ دفع الباب ليجدها واقفة أمام النافذة، ظهرها إليه، ونظراتها ثابتة تنظر نحو فارغ مرعب، كانت تبدو كتمثال شاحب نُحت من الألم، عيناها مغبرتان، غارقتان في عمق لا يراه سواها.

اقترب منها بهدوء، أخذ نفسًا عميقًا، وكأنه يستجمع شتات نفسه حتى لا يقسو عليها أكثر، ثم قال بصوتٍ حنونٍ: ما تفعلينه خطأ يا عظيمة، دليلة لا تستحق منكِ تلك القسوة، هي ابنتكِ، ونجاحها يجب أن يكون فخرًا لكِ، لا خيبة.

لم تعبأ بحديثه، واتجهت بخطوات بطيئة نحو الفراش، جلست على حافته وكأنّ ثقل العالم ينوء على كتفيها، أخذت نفسًا عميقًا، ثم نظرت إليه وفي نظرتها خيط متشابك من الحزن العميق والاحتجاج الصامت، وتحدثت بصوتٍ متحشرج، يئن تحت وطأة ألم دفين: الابن الحقيقي مات يوم أعلنتم وفاته قبل أن تراه عيناي، وتلك الفتاة... لم يكن لها أن تنبض بالحياة.

انتفض عقله من وقع كلماتها، وتقدم نحوها بخطوات متسارعة، مذهولًا مما سمع، وقال بصوت يتأرجح بين الغضب والدهشة: ما الذي تقولينه يا امرأة؟ ألا تعلمين أن الخطأ كان منكِ؟ أنتِ من لم تُنجب الصبي، فلماذا تتحمل دليلة ذنبًا لم تقترفه؟

وقفت بغتةً، وكأن إعصارًا من الغضب اجتاح كيانها، تقدمت نحوه وعيناها تقدحان شررًا مكبوتًا، وأجابت بصوت متحشرج بالحقد والاحتقان: ليس لدينا فتيات يتجولن في الأراضي، ولا يركبن الخيل أو يسافرن وحدهن. لا نسمح لمن يخالطن الرجال ويمارسن ما يخالف أعرافنا، ويعلم الله وحده ما قد يحدث إن تركنا الأمور تفلت من زمامها.

حدّق فيها فاروق بنظرة ملتهبة، وقال بثباتٍ لا يخلو من التحدي: إياكِ أن تدعي سوء الظن يتغلغل في قلبك مجددًا، دليلة ابنتي، وهي فخر والدها. أثق فيها ثقةً لا تهزها رياح الشك، ولن تخذلني حتى لو وقفت في قلب إعصار من نار.

توقف لوهلة، وكأنّ كلماته الأخيرة تحمل تحذيرًا صارخًا، ثمّ أكمل بنبرة منخفضة لكنّها حادة: انتبهي لما يدور في عقلك يا عظيمة، ما تخططين له، نهايته ستكون وخيمة."

وفي مكان آخر، كان قاسم منهمكًا في حبك مؤامرته الجديدة، حيث أشار إلى أحد رجاله، وقال بصوت يقطر خبثًا: استقل القطار المتوجه إلى القاهرة، ولا تخطو خطوة حتى تأتيك الأوامر مني.

****

(9) صـورة ثانيـة

حياتك صفحة بيضاء، قد تلطخها ألوان عابرة، لكن إبداعك يرسم منها لوحة لا تُنسى.

لحظة مغادرتها محطتها، ولدت دليلة من رماد الخوف، أخذت تمد يدها لحلمٍ راودها طويلًا حتى صار بين يديها، نابضًا بالحرية. وفي قلب القاهرة، تباطأ الزمن كأنّه يمنحها فرصة لاحتضان تحوّلها الجذري.

راحت تطل من نافذتها، بدت المدينة لوحةً حية، تتنفس ألوانًا وأصواتًا، تدعوها لكسر حدود المألوف. بعينيها اللامعتين، اخترقت كل زاوية، وكل نفسٍ تستنشقه كان إعلان استقلالها عن ماضيها القاتم."

حتى صوت والدتها القاسي، الذي كان يومًا سجنًا في قلب عالمها، تلاشى أخيرًا، ليحل محله صوت الحرية لحياة جديدة.

وبينما كانت غارقة في تشييد حلمها، اخترقها صوت مفاجئ لرنين الهاتف الخاص بالمنزل الذي لم تكن تعلم بوجوده، بحثت بسرعة عن مصدر الصوت، وما إن رفعت السماعة حتى جاءها صوت والدها، يهنئها بوصولها، شعرت أن شيئًا في أعماقها قد اكتمل أخيرًا وغمرها صوته بحبٍ وأمانٍ

اشتاقت لهما، راحت تردد وعدها لنفسها مرة أخرى أن تعود حاملة شهادتها، تلك التي سيباهي بها يومًا.

في تلك اللحظة، انفتح الباب بهدوء لتطل منه الخادمة، فتاة في مقتبل العمر، لا يتجاوز عمرها الثانية والعشرين، ملامحها بسيطة، عيناها مبتسمتان، تمتاز بخفة ظل وفكاهة عالية، اكتشفتها دليلة منذ الوهلة الأولى التي رأتها فيها.

مالت برأسها من خلف الباب تمازحها قائلة: هل سنتناول العشاء الآن، أم أنكِ من أصحاب المعدة الخاوية، ابتسمت لها، ثمّ تحركت إلى الخارج ممازحة: يبدو أنّ وزني سيزداد على يديكِ يا نعمة.

في اليوم التالي

أقبل الصباح وشعشع ضياؤه عندما اجتازت أشعة الشمس عتبة الغرفة، دخلت كفيض من الذهب المنساب عبر الستائر؛ فغمرتها برقة من كل الزوايا، كأنها تشق طريقها في أفق الظلام.

بدأت دليلة تصحو على مهل، المكان جديد ومع هذا شعرت بألفة غريبة، جعلتها تغفو كرضيع يعانق أحضان أمه، طرقت الخادمة الباب، دلفت إلى الداخل، وأخبرتها أنّ السيد آدم ينتظرها في الخارج، نظرت إليها نظرة مشحونة بالتعجب والفضول، وتساءلت عن هوية هذا الضيف وكيف سمحت له بالدخول دون إذنها، ارتدت ملابسها، وخرجت لتراه؛ فإذا به الشاب الذي استقبلها ليلة أمس.

عقدت ذراعيها ببطءٍ، في حركة تحمل من القوة بقدر ما تحمل من الهدوء، نظرتها الحادة اخترقت الفراغ، قبل أن تستقر على الخادمة التي وقفت بانتظار أوامرها، وبصوت خافت لكنه نافذ، أشارت لها بيدها وقالت: لا أريد أن يدخل أحد إلى هنا إلا بإذني، هل هذا واضح؟ هزت الخادمة رأسها سريعًا، وقد انعكس على وجهها مزيج من القلق والخوف، ملامح دليلة عبرت بحدة ونظرة قاسية، فقد شعرت بأنّ هذا القرار البسيط بمثابة استعادة جزء آخر من سيطرتها على حياتها، خطوة صغيرة نحو بناء عالمها الجديد، حيث لا مكان للتطفل أو الفوضى.

ضحك آدم بصوتٍ عالٍ وقد وصل إليه ما تحاول فعله فقال بثقة متسلطة:

هل تعلمين آنستي أنّ هذه الشقة ملكٌ لي؟

جحظت عيناها في حين حاولت تكذيبه، فقالت: كيف هذا؟!

مد شفتيه إلى الأمام وقال: هل تعتقدين أن تسكن ابنة فاروق الشرقاوي لدى شاب عادي؟!

- لم أقل هذا، أخبرني والدي بهويتك.

- حقًا!

صمت لوهلة ثم تقدم نحوها خطوة، بينما تراجعت عنه بقلق، وقال: ماذا قال لكِ؟

- قال إنّ والدك صديقٌ له، وأبي يثق بك كثيرًا.

- كيف يمكنكِ التأكد من أنني أستحق تلك الثقة؟

ابتسمت ساخرة، ثمّ اقتربت منه بخطى واثقة وقالت: إذا كنت تقف أمامي الآن فهذا يقين على أنّ أبي لم يكن مخطئًا.

صفق لها وقبل أن يتحدث أوقفته واستطردت قائلة: لكن هذا لا يعني أنني لا أملك رؤية أخرى يمكنني من خلالها القول إنك لست أهلًا لذلك.

ظل ينظر لها في وجوم تارة وذهولًا تارة أخرى، لم يصدق أنها نفس الفتاة التي رآها ليلة أمس تسير متخبطة الخطى، لكنها لم تتوقف عن هذا؛ بل أردفت: مع هذا لن يمكنك أن تخطئ وإلا...

صمتت فقال مستفسرًا: وإلا ماذا؟

تجاهلته، ثمّ نادت على الخادمة التي كانت واقفة خلف الستار تسترق السمع، أتت إليها بسرعة ووقفت قبالها؛ فأكملت بتحدٍ قائلة: إياكِ أن تسمحي لأحد بالدخول إلى هنا مرة أخرى.

صمت عن الحديث لكن نظرته الثاقبة، انطلقت كالسهام تخترق الصمت، تحمل في أعماقها سحابة رمادية تلفها قسوة مكتومة، تختبئ خلف جفونه السوداء، وكأنها وعود عاصفة لم تنفجر بعد.

غادر آدم لكنّه ترك شحنة من الغضب مكانه، كان هادئًا، لم يظهر ردة فعل تجاه حديثها المشحون بالكراهية، فقد كان اللقاء الأول أشبه بلقاء الفريسة بصيدها، ابتسم ابتسامة محملة بغيظ ساكن في ضلوعه، بينما كان يقاتل بين رغبة ملحة في التعبير عن غضبه وقوة كرامته التي تمنعه من الاستسلام.

مر اللقاء الثاني مشحونًا بتوتر يكاد يُرى في الهواء حيث كانت نظراتهما أشبه بالسيوف المتقاطعة، كل كلمة تحمل بين طياتها معاني مبطنة تشتعل كجمرة تحت الرماد.

حاولت كسر هذا الجو المشحون بطريقتها؛ فاستغرقت يومها في استكشاف المكان وكأنها تنحت لنفسها بقعة آمنة لتستقر فيها، فراحت تتنقل من غرفة إلى أخرى، تراقب التفاصيل، تجمع أجزاء أحجية غامضة، تتلمس بيدها الجدران وكأنها تتحاور مع الحاضر الذي سكنها، وحين هبط ستار الليل، بدا وكأنّ كل شيء هدأ ظاهريًا، لكن في أعماقها شعرت ببداية حوار طويل بينها وبين نفسها، وقبل أن تختلي بتلك اللحظة، اخترق الهدوء فجأة همسات غير منتظمة تنبعث من الشقة المجاورة، التفتت، فوقع نظرها على آدم، أخذت نفسًا عميقًا وراحت تنفثه بضيق بدا ظاهرًا عليها، وكأنّ حضوره يشعل في الأجواء لهيبًا غير مرئي، نكهة من التحدي الذي لا يُعلَن.

رمقته بنظرة خاطفة، لتشتعل بينهما معركة صامتة، كل منهما يتشبث بكبريائه كأنه الدرع الأخير الذي يقيه من السقوط، عينا دليلة كانتا كجدار من صخر، صلبة، لا تُخترق، بينما واجهها آدم بنظرة مشتعلة تحديًا، كأنه يهمس: إن كان عنادك سلاحك، فاصمدي، لكن قوتي عصية على الهزيمة.

لكن في النهاية، تمكّن الليل بسكونه من إخماد نيران الصراع بينهما، ليظل الظلام سيد الموقف.

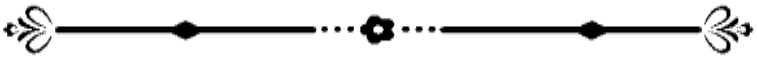

(10) اللـــعبــة

التلاعب بالعواطف قد يمنحك نصرًا عابرًا، لكن كسرها يترك ندوبًا لا تزول، فالقلب يشفى، لكنه لا ينسى من أوجعه.

عندما وطأت دليلة الحرم الجامعي لأول مرة، شعرت وكأنها تعبر بوابة إلى عالم آخر، كل شيء حولها بدا غريبًا ومبهرًا، صخب الطلاب وضحكاتهم المتداخلة مع أحاديث سريعة وصوت الخطوات المتلاحقة يشكل سيمفونية عجيبة، بعيدة كل البعد عن سكون قريتها الذي لطالما اعتادته.

المباني الضخمة بجدرانها المرتفعة وزجاجها العاكس، بدت لها كحصون شاهقة تحمل بين طياتها أسرارًا تنتظر الاكتشاف. شعرت بوهج الحلم الذي طالما راودها، حتى تردد داخلها صوت يقول: هذا هو المكان الذي سيعيد تشكيل حياتك، هنا ستكتبين قصتك كما أردتِها دومًا، وليس كما أرادوها لكِ.

كانت الفتيات في الحرم الجامعي مشهدًا نابضًا بالتناقضات، كلوحة تحمل ألوانًا متداخلة ومتعارضة، بعضهن يرتدين الحجاب، لكنّه بدا أشبه بقطعة زينة أكثر منه سترًا، إذ انسلت منه خصلات الشعر بألوان صارخة، وعلى الجانب الآخر، تسير فتيات بلا حجاب، لكن ملابسهن تعكس بساطة واحتشامًا عفويًا، كأنّ الحياء ينبع من الداخل دون حاجة إلى غطاء رأس.

كانت تتأمل الوجوه والهيئات، تستشعر صراعًا خفيًا بين القشرة والمضمون، الحجاب موجود لكنّه بدا فاقدًا للروح، بينما الاحتشام الذي يفترض أن يتجلى في الشكل، بدا متجذرًا في العمق، يختبئ خلف صور تبدو باهتة.

تساءلت في داخلها: هل يعكس هذا التناقض حرية أم تحرر؟ وهل يمكن أن تلتقي الروح والقالب يومًا في انسجام صادق؟

كانت تلك اللحظة بمثابة افتتاحية لفصل جديد في كتاب حياتها، فصل لم يخطر ببال أحد في مجتمعها الصغير، وكأنها اقتُلعت من أرض مألوفة لتُلقى في عالم شاسع ينبض بالتنوع، فحلمها لم يكن مجرد عبور بوابة الجامعة فحسب، بل ثورة على قيود التقاليد وصمت المجتمع، وتحديها لم يكن في الدروس وحدها، بل في تمزيق أغلال الرفض التي كبلت خطاها لسنوات، كل خطوة مثلت لها صرخة تمرد، كل إنجاز إعلان ولادة جديدة، لتحرر ذاتها من إرثٍ ثقيلٍ وتصوغ مستقبلها بروح لا تقهر.

اشتعلت أصوات متضاربة داخل عقلها، هل تنحني قليلًا أمام قواعد هذا المجتمع لتتمكن من التغلغل فيه والسيطرة عليه، أم تعارض الثوابت التي نشأت عليها؟

فكان الفوز للصوت الأقوى، حيث قامت بخلع غطاء رأسها بحذر مشوب بالخوف من الرفض أو العقاب، وكأنها تتحدى العالم بارتعاشةٍ صامتةٍ، لكن سرعان ما أدركت أنّ في هذا الفضاء الجديد لا أبواب تُغلق، ولا

مخاوف تُلاحق خطوات الباحث عن الحرية، فقط التغلب على الخوف كان مفتاح الطريق نحو الحقيقة.

.....

في غرفة معتمة تتسلل إليها أشعة الشمس الخافتة عبر ستائر ثقيلة، جلست حفيظة على حافة الكرسي، عيناها مشدودتان إلى الأرضية كما لو كانت تحفر في أفكارها، بينما كان قاسم يجلس قبالها، مسترخيًا على الأريكة، يُدير كوب الشاي في يده دون أن يرف له جفن، الصمت يخيم على المكان، إلا أنّ توترًا خفيًا كان ينساب بينهما كأنهار لا يُسمع صوت جريانها.

لا يمكن أن تستمر دليلة في هذا الطريق... نطقت حفيظة أخيرًا، نبرتها حادة كحد السيف، تخترق صمت المكان كطعنة خفية، عيناها تومضان بغضب مكبوت كبركان ينتظر لحظة الانفجار.

تابعت بنبرة تفيض احتقانًا: تتصرف وكأنها فوق الجميع، تتحدى أعرافنا وتظن أنها قادرة على هدم أسس العائلة التي صمدت لعقود.

لم يرفع قاسم عينيه عن كوب الشاي الذي كان يعبث به بهدوء متعمد، وكأنّ حديثها مجرد خلفية لصخب داخلي يعصف به، لكنّه يعرف أنّ هذا الهدوء ما هو إلا قناع، وأنّ الوقت قد حان للكشف عن نواياهم. خرج عن صمته أخيرًا، نبرته باردة كالجليد: لا أحد يفلت من قبضتنا دليلة تعتقد أنّها حرّة، لكنّها ستدرك قريبًا أنّ الحرية ليست إلا وهمًا... وأنّ الثمن لن تحدده هي.

التقت أعينهما كأنّ شرارة خفية أشعلت خيطًا من النار بينهما، نظرات حملت اتفاقًا غير معلن، ووعودًا خبيثة تتوارى خلف صمت مدروس.

وقفت حفيظة من مكانها، خطواتها وئيدة لكنها محمّلة بثقل خطة شيطانية، اقتربت منه، نبرتها تحولت إلى همس يتقاطر مكرًا: "سنبدأ بخطوات صغيرة، لا حاجة للعجلة، سنزرع الشك في قلب أخيك... والبقية ستتكفل بها هي بنفسها.

لم يجبها قاسم، فقط ارتسمت على شفتيه ابتسامة خافتة، كأنما يشيد صرحًا من الظلام في خياله، ينتظر لحظة اكتماله.

****

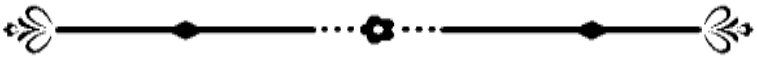

(11) خطـأ مقـصـود

الحظ يخفي مفاجآته في أحلك اللحظات، فحين ينقلب القدر، قد يبدأ الفرج.

مرت ثلاثة أشهر كانت فيها دليلة تمحو كل ما يعترض طريقها لتحقيق حلمها، مستندة إلى عزيمة لا تعرف الانكسار، وخلال تلك الفترة القصيرة أصبحت حديث الجامعة، وحظيت بلقب "فراشة الجنوب"، بينما ظلت نظراتها الحادة حاجزًا لا يجرؤ أحد على تجاوزه.

تلاشت الفوارق بين الصعيد والقاهرة في ملامحها وسلوكها؛ لتغدو قاهرية، متماهية مع أجواء المدينة الجديدة كأنّها نشأت فيها.

ظل آدم حاضرًا في يومياتها، يرافقها في تنقلاتها، بينما اعتمدت على السائق الذي عينه لعودتها، لكن علاقتهما سلكت مسارًا متعرجًا، إذ كان اختلاف شخصيتيهما يشعل شرارات خلافات وإن بدت صغيرة، لكنّها تركت أثرها؛ فكلما اجتمعا معًا، احتدم التوتر بينهما، وارتفعت أصواتهما في مواجهات أشبه بعراك الأطفال.

ذات يوم أثناء جلوسها وسط بعض الصديقات، تعرفت على "علا" فتاة تنتمي إلى الطبقة الأرستقراطية، نظراتها تحمل تعاليًا هادئًا على الجميع، لكنّها

تمكنت من التقرب إلى دليلة بسرعة، وكأنّ بينهما رابطًا نسجه تشابه الفكر المتحرر والرغبة في تهشيم الأبواب المغلقة.

أثناء قضائهما بعض الوقت في ممر الجامعة، قطع رنين هاتف علا لحظة الهدوء معلنة إشعارًا بوصول رسالة، تفحصت هاتفها، بينما كانت دليلة تنظر إليها بفضول، وكأنها تستشعر أنّ وراء هذه الرسالة حكاية جديدة أو مفاجأة غير متوقعة وقد كانت.

نظرت علا للجميع بابتسامة عريضة، تلك الابتسامة التي تحمل في طياتها خليطًا من الحماس والتفاخر، التفتت نحو دليلة وقالت بنبرة يغمرها البهجة:

ما رأيك أن تقضي معنا عطلة نهاية الأسبوع على اليخت؟ سيكون تغييرًا جميلًا بعيدًا عن صخب المدينة، البحر ينتظرنا، ومغامراته لا تنتهي!

انطلقت كلماتها كدعوة لعالم آخر مليء بالهدوء والنقاء، لكن في أعماقها كانت تحمل ترددًا، وكأنّ شيئًا ما يمنعها من الانسياق بسهولة نحو هذه اللحظة.

أخذت نفسًا عميقًا وبصوتٍ مترددٍ: أريد أن أفكر في الأمر قليلًا، ليس لأنني لا أريد، لكن... صمتت هنيهة، ثمّ استطردت: أخشى أن تكون هذه الخطوة أكبر مما أستطيع تحمله.

كانت تتحدث، وصورة اليخت تتهادى أمام ناظريها، كأنّها نافذة مفتوحة على عالم بعيد يناديها، عيناها تغرقان في زرقة البحر الممتدة بلا حدود،

نسيم المحيط يتخيلها يعانق وجنتيها برذاذٍ مالحٍ، بينما السماء تتلألأ كمرآة تعكس بريق المغامرة. تخيلت نفسها تتنقل فوق سطحه بخفة، كطائر يتحرر من قفصه، لكن خلف هذه الصورة الساحرة، كان الخوف يتربص في زوايا قلبها، يقيد أحلامها بسلاسل من التردد، ويرسم عواقب غامضة قد تنشأ عن جرأتها.

شعرت بأنّ البحر، الذي بدا كحلمٍ شاسعٍ، قد يتحول في لحظة إلى هاوية لا قاع لها.

اقتربت علا واضعة يدها على كتفها برفق، كأنها تمد لها حبل النجاة، وقالت بصوتٍ هادئٍ لكنّه مليء بالقوة: لا تضغطي على نفسك، لكن تذكري... أحيانًا تكون أعظم اللحظات نجاحًا مختبئة خلف أكثر التحديات رعبًا.

مضغت كلماتها بشيء من الراحة مما دفعها أن تفعلها دون خوف، وبحركة حاسمة، حملت حقيبتها، واندفعت خارج أسوار الحرم الجامعي دون أن تترك مجالًا لتبرير أو تفكير، استقلت السيارة وأمرت السائق، بصوت هادئ يخفي عاصفة داخلية: إلى الميناء، وفي سريرة نفسها تحدثت: لدي موعد مع القدر.

وهناك، بين أمواج البحر وافق المجهول، بدأت دليلة تطوي صفحة ماضيها بكل قيوده، متجهة بخطوات واثقة نحو المستقبل، حيث تُكتب قراراتها الجديدة بماء الجرأة وموجات الحرية.

وصلت خلال دقائق معدودة، لتصعد إلى متن اليخت الذي بدا كعالم مسحور يعج بالأضواء البراقة والأجواء المزخرفة، كلوحة رسمت بألوان الحلم، كل شيء حولها ينبض بالترف والجمال، لكنها لم تشعر بتلك السعادة التي كانت تتوقعها.

كان قلبها صامتًا، ينبض بتوجس مبهم بدلًا من الفرح، وكأنما الحلم يخفي خلفه وجهًا آخر، وسرعان ما تبدلت الأجواء، الموسيقى الصاخبة تخترق أذنيها، الكؤوس تتراقص بين الأيدي، والأصوات ترتفع في صخب لا يهدأ، الحرية التي ظنت أنها وجدتها، تتحول إلى قيد جديد يلتف حول عنقها، قيد من نوع مختلف، لا تراه لكنه يخنقها ببطء، شعرت وكأنها غريبة، وبدأ القلق يزحف إلى ملامحها، رغم محاولتها جاهدة إخفاء ما يموج في داخلها.

لكن سرعان ما اصطدمت الحقيقة بجدران صبرها، عندما دعاها الآخرون للمشاركة في أجواء لم تعرفها ولم تؤمن بها، تفجرت بداخلها موجة من الغضب، كلمات الرفض تشق طريقها إلى الخارج بلا وعي: لا... هذا ليس مكاني، لا يمكنني البقاء هنا! انطلقت نحو مقدمة اليخت بحثًا عن مخرج، أو فرصة للعودة إلى شاطئ أمانها.

ولكن حين نظرت إلى الأفق، ارتعشت عيناها برعب، كانوا قد ابتعدوا كثيرًا عن اليابسة، وخط العودة أصبح مستحيلًا.

وقف القبطان أمامها، جامد الوجه كتمثال من صخر، ليخبرها بنبرة باردة أنّ العودة لن تكون إلا مع شروق الشمس، للحظة، شعرت وكأنّ قدميها قد تخلتا عنها، وكادت تسقط أرضًا، فيما قلبها ينبض بجنون، يدق أجراس خطر لم تستطع تجاهلها.

تقدمت بخطى وئيدة نحو حافة اليخت، تتأمل المياه التي تمتد بلا نهاية، تفصلها عن الأمان الذي بات بعيدًا كالحلم، كان العالم الصاخب من حولها يتحول إلى حصار خانق، كل صوت، ضوء، وكل حركة تحولت ليدٍ غير مرئية تضغط على روحها.

مضى الليل ببطء، قضته في زاوية نائية من اليخت، تتأرجح بين صراع داخلي وعجز صارخ، فاستبد بها الخوف، كقبضة حديدية، تلاحقها ملامح مصير مجهول يترصد عودتها.

ومع فجر صباح اليوم التالي، رست السفينة على الشاطئ، كانت خطواتها سريعة وخائفة، كأنها هاربة من شبح يلاحقها، وصلت إلى المنزل منهكة، تتنفس باضطراب، وقبل أن تصعد لأعلى، وجدت آدم واقفًا بانتظارها، بدت ملامح الغضب تجثم على وجهه، وكأنها أثقلت ملامحه بثقل العاصفة، صوته جاء قاسيًا: أين كنتِ؟

ــ لا شأن لك..

قالتها وهي تتصنع مزيدًا من القوة محاولة كبح الخوف القابض ضلوعها واستطردت قائلة: أنا لست بحاجة إلى وصايتك!

ــ وصاية؟ أنتِ تعلمين جيدًا أنّ ما تفعلينه غير صحيح! انفجر فجأة وصوته ملأ المكان، فبادلته الصراخ وظل كل منهما يطلق الاتهامات والتحديات حتى بلغ الصراع ذروته.

في تلك اللحظة، تحدته بعزم لم يكن لينهار بسهولة، ولكن في أعماقها راحت تتساءل: كيف وصلت إلى هذه النقطة؟ وكيف فقدت السيطرة في أول اختبار لها؟

صعدت إلى شقتها، مفعمة بالإرهاق والغضب، تتوقع أن تجد في غرفتها ملاذًا يخفف عنها وطأة اليوم، لكن ما إن فتحت الباب حتى فوجئت بمفاجأة أكبر، حيث كان والدها وعمها يقفان هناك، بملامح متجمدة، وعيونهما تراقبان كل حركة منها، كما لو كانا في انتظار لحظة فارقة.

ــ أين كنتِ؟

قالها والدها وهو ينظر لها بعين ثاقبة يراقب ماذا ستخبره!

تجمدت الكلمات في حلقها، وأصبح الخوف ألد أعدائها، شعرت وكأن الأرض تميد تحت قدميها، كادت تسقط رعبًا، لكنّ صوتًا أتى من خلفها، لتلتفت نحوه وتجده يتحدث بنبرة هادئة: لقد عدت معها من الجامعة، لم أخبرها بقدومكما، أردت أن تكون مفاجأة.

اختفت ملامح التجهم عن وجه والدها، اقترب منها وعانقها بقوة وشوق، ثمّ قال بصوت مفعم بالفرح: لقد جئنا لأخذك.

لم تعلم إن كانت تلك الكلمات قد قتلتها في تلك اللحظة، أم أنها مجرد جرح عميق طعن قلبها على غفلة، ثمّ جاء صوت عمها البارد، وهو ينظر إليها بنظرة المنتصر قائلاً: من أجل خطبتك.

شعرت وكأنّ العالم ينهار من حولها، كل شيء أصبح يتلاشى، وكادت تسقط تحت وطأة الصدمة، بينما حلمها ينكمش في غياهب السطوة.

****

(12) حلـــم معطـــــوب

الأحلام زهـور، إن أهملتها ذبلـت قبـل أن تـزهر.

لم تكن خيبة أمل دليلة في أنّ العالم لم يتغير كما حلمت؛ بل في أنها أدركت أن النور الذي أضاءته في قلبها لم يكن كافيًا لإذابة جليد العادات التي ولدت لتكسرها، كانت تقف على أطلال أحلامها، تنظر إلى السماء التي وعدتها بالحرية، فقط لتدرك أنّ السماء نفسها قد انقلبت ضدها.

.....

عادت إلى خيبتها الأولى كأنّها لم تغادرها يومًا، اجتاحها اليأس ببطء، كظلٍ يبتلع كل أمل لها، لم تجرؤ على التفوه أمام والدها؛ فكيف لها أن تقف في وجه قراره بعد أن لامست سعادته الغامرة وهو يخبرها به، حاولت يائسة أن تنقي أفكارها المشوشة، أن تستعيد ما حدث في اللحظات الأخيرة، لكنّ سؤالًا ظل يطاردها: لماذا انجرفت وراء حلم لم يحن موعده بعد؟ ولماذا دافع عنها آدم بقوة؟ لقد أخفى عنهم الفاجعة التي ارتكبها، وظل يقف بجانبها، تاركًا إياها تغرق في بئر من الحيرة، أسيرة لدوامة أفكارها المتشابكة، عاجزة عن اتخاذ أي قرار، وكأن عقلها قد تجمد في مواجهة الواقع المروع.

.....

وصلت إلى القرية، وقلبها مشبع بمشاعر الترقب والغضب، استقبلها الأهالي بحفاوةٍ وحماس، بينما كانت أصوات الرصاص تشق السماء، معلنة احتفالًا بوصولها.

عند مدخل البيت، اصطفت النساء، يطلقن هزيم الفرح بسعادة جامحة، وهن يتسابقن في تقديم التهاني.

خرجت عظيمة وسط النساء كأنها ملكة في موكب مهيب، وأطراف حجابها تتطاير خلفها، تضفي عليها هيبة وقوة لا تخطئها عين، تقدمت بخطى واثقة، شامخة كأنها تجسد الانتصار ذاته، تبادلتا النظرات، لكن شتان ما بينهما، كانت نظرات عظيمة فخرًا وإعلانًا عن انتصار ساحق، بينما وقفت دليلة أمامها بنظراتٍ منكسرة، مثقلة بالهزيمة والذل.

رفعت عظيمة ذراعيها عاليًا، وصوتها يصدح بقوة لا تعرف الهزيمة:

أهلًا بعروس عائلة الشرقاوي.

عانقتها دليلة، لكن في قلبها تصاعدت الفوضى كحرب غير معلنة واشتعلت بينهما، راحت تتحدث بصوت مكلوم:

لقد فزتِ يا أمي... مبارك لكِ.

لم تُجبها؛ بل اكتفت بابتسامة ثابتة على ثغرها، كأنها تجمدت هناك.

تخطتها دليلة وهي تتوجه نحو الداخل، غير آبهة بأحد، دلفت إلى غرفتها وأغلقت الباب خلفها بسرعة، تاركة لدموعها أن تسقط بحرية، معلنة هزيمتها الصامتة.

يومان وطبول الفرح في البلدة لم تهدأ، الجميع يحتفلون بعرس ابنة كبيرهم، ولا أحد يشعر بالنيران المشتعلة في الخفاء، كانت تقف وسط زوبعة من المشاعر، وكأن إعصارًا هادمًا يشتعل داخلها، يهدد بتمزيق كل ما سعت في تشيده.

ترتفع أصوات الضحكات، تهليل الأهل يملأ المكان، والدها تغمره السعادة، يبتسم غير مدرك بالألم التي يمزقها من الداخل، فجوة عميقة، تضاد صارخ بين الفرح الطاغي الذي يملأ الأجواء، والحزن العميق الذي يغلفها، ليصدع داخلها كعاصفة تهز مشاعرها.

.....

وفي مشهد لا يخلو من لمسة شيطانية، يقف قاسم وسط أهل البلدة وعلى وجهه ابتسامة نصر خفية، بجانبه زوجته، تقف بفخر لا يقل عنه، وقد حاصرتهما فرحة نجاح خطتهما.

حيث كانا ينسجان خيوط هذه المكيدة، يحركان كل خيط فيها بدقة، ليضمنا أنّ دليلة ستساق نحو المصيدة التي أعدوها لها، كانت هذه الخطبة جزءًا من لعبتهما، خطوة أخرى نحو تحقيق أهدافهما؛ يفكران كيف يمحو أثرها من العائلة، كأنها عدوة لهما تهدد بقاءَهما؛ لهذا حرك

قاسم الأمور في الخفاء، أوهم الجميع أنه يفعل الصواب من أجل العائلة، بينما هو يحكم قبضته عليها أكثر فأكثر، وزوجته اليد الخفية التي تمهد له الطريق، تشاركه في خطته التي كُتب على دليلة أن تكون ضحيتها.

وفي زاوية بعيدة عن أجواء منزل فاروق الشرقاوي، كان آدم واقفًا في مواجهة مع ذاته، دائرة من الحيرة والغموض تحيط به كضباب كثيف، وشعور مربك يعصف بقلبه دون تفسير. لماذا دافع عن دليلة؟ سؤال يتكرر في ذهنه بلا إجابة، راحت الأفكار تتصارع داخله كأمواج متلاطمة، وصورتها لا تفارقه، وهي ترحل معهم محملة بالحزن والانكسار، لأول مرة يراها في هذا الضعف الموجع، مشهد أشعل داخله إحساسًا غريبًا لم يعهده من قبل.

وفجأة، وكأنّ صوتًا خفيًا أيقظه من دوامة أفكاره، اجتاحته قوة مباغتة، زلزلت صمته وأشعلت شرارة قرار لم يكن يتوقعه، اندفع في سرعة وارتدى معطفه سريعًا، وتوجه إلى الخارج عازمًا على الوصول إليها.

****

(13) عــودة ميـــت

"قد يكون ما نخشاه اليوم هو ذاته الذي نلوذ به غدًا، ففي أحيانٍ كثيرة يحمل الخوف بين طياته دروب النجاة التي لم نرَها ونحن غارقون داخله.

قبل يوم من الزفاف

حين لف السكون المنزل بأسره، تسلل صوت الكروان ينساب في الأفق وهو يغرد بنغمة عذبة، يخترق هدوء الليل، بدت الأجواء مرتجفة، يكتنفها الصمت وتحيط بها رهبة اللحظة، شعرت دليلة بضربات قلبها تتسارع في تضارب مخيف، كلّ شيء حولها يتهيأ لوداع أيامها القديمة واستقبال صفحة جديدة لا ملامح لها سوى القمع.

ووسط هذا الصمت المطبق، قطع صوت غريب سكون المكان، طرقات خفيفة متتابعة جعلها تفتح عينيها ببطء، أشاحت بوجهها نحو الضوء المتسلل، والذي رسم ظلال الغرفة بترددٍ غامض، فاستقامت في جلستها، وعيناها تتنقلان في اضطراب، تبحثان عن مصدر تلك الأصوات الغريبة، فجأة، انفجر ضوء كشافٍ حادٍ من خلف النافذة، ليتبعه طرق متواصل.

انتباهها الخوف؛ فنهضت بسرعة، راحت تتقدم ببطءٍ نحوه، حينها بدأ الصوت يردد اسمها، تقدمت بخطى مترددة نحو النافذة، وما إن دفعت الستائر لتفتحها، حتى وقعت عيناها عليه... آدم، واقفًا أمامها.

دهشة أعقبتها صدمة لرؤيته، أسئلة كثيرة ملأت عقلها: كيف جاء إلى هنا؟ ولماذا؟ وفي لحظة، انطلقت الكلمات من فمها كالسيل دون توقف.

حاول آدم إجبارها على أن تصمت قبل أن يستمع إليها أحد، فصعد بضع درجات مقتربًا منها، تصادمت نظراتهما، لحظة أوقفها الزمن، عندما شعرا أنّهما يلتقيان للمرة الأولى، اختفت القسوة التي كانت تملأ عينيه، ولم يظهر سوى هدوء يشبه خيوط الفجر.

لأول مرة، خانته الكلمات وتحشرجت في حلقه كحطام عالق في مجرى ضيق، رفع بصره إليها، ثمّ استدرك حديثه بنبرة أكثر صلابة ووضوح: عليكِ أن تثقي بي الآن، فقط الآن، دون أسئلة، دون شكوك، حياتكِ قد تعتمد على هذا القرار

شعرت بأنفاسها تضيق، وكأنّ كلماته ألقت بثقل مجهول على صدرها، وتمعنت النظر إليه، بعينيها الواسعتين اللتين ملأتهما حيرة وخوف، حتى استطرد حديثه وقال:

عليكِ أن تتركي المنزل الآن، ولا تعودي حتى تشرق الشمس.

اتسعت عيناها في ذهول، حاولت كبح الصراع القائم داخلها وقالت بنبرة ساخرة:

هل جننت؟ لا يمكنني أن أفعل ذلك!

اقترب منها خطوة أخرى، نبرة صوته ازدادت إصرارًا وهو يقول: إن لم تفعلي، ستُجبرين على الزواج قريبًا، وسينتهي حلمك.

انطلقت كلماته كنبالٍ أصابت قلبها، ارتعشت أنفاسها، وخُيل لها رؤية الأبواب تُغلق على أحلامها واحدة تلو الأخرى، ذكريات الطفولة والعادات والأحلام التي نسجتها في مخيلتها، كلها بدأت تتلاشى أمام فكرة الزواج الذي شعرت به كمرساة تُكبل روحها.

لاحظ آدم ترددها، فأخرج من جيب بنطاله لعبة خشبية قديمة ملطخة بالغبار، رفعها أمام وجهها: انظري.. أخبري والدتكِ أنّ أخاكِ محمود جاءكِ في الحلم وأخبركِ بمكانها.

بدا صوته هادئًا، مفعمًا بالثقة، تجمدت للحظة، عقلها لا يتحمل استيعاب ما يحدث، حدقت في اللعبة بذهول، وكأنّ جزءًا من ماضيها المفقود عاد إليها، قالت بصوت مرتعش:

من أين أتيت بها؟ وكيف تعلم أنها لأخي.

أجابها بثقة ودون تردد: ثقي بي، عليكِ تنفيذ ما طلبته، الأمر سيصب لصالحك.

تراجعت قليلًا، شعرت ببرودة الأرض تحت قدميها وهي تقف على حافة قرار لا رجعة فيه، قلبها يموج بالقلق والخوف، تراكمت التساؤلات داخلها: كيف حصل على تلك اللعبة وما يقينه بما سيحدث عندما أخبر أمي بهذا؟ شعرت أنها على مفترق قرارًا سيحسم حياتها ولا وقت للجدال فيها، أغمضت عينيها للحظة محاولة تهدئة العاصفة داخلها، ثم فتحتهما ببطء وقد اتخذت قرارها: سأفعل ما طلبته.

في الصباح الباكر، استيقظ فاروق بشعور غامض يغص على قلبه، كانت النساء منهمكات في إعداد الطعام، بحث بينهما عن دليلة بقلق، لا يعلم سر هذا الشعور الذي يراوده بالخوف عليها فسأل: أين دليلة؟

أخبرته ابنته فاطمة أنها لا تزال نائمة في غرفتها، أمرها بأن توقظها، ذهبت وعادت سريعًا وقد علت وجهها علامات القلق، وتحدثت بصوت مرتجف: دليلة ليست في غرفتها.

انتشرت الفوضى في أرجاء المنزل كشرارة أوقدت نار الفزع في قلوب الجميع، وتدافعت الأقدام نحو الغرف والأبواب، الكل يبحث عنها في كل زاوية، وفاروق يهتف بتوتر: أين اختفت؟

وقبل أن تنفجر نوبة غضبه، ظهرت دليلة عند عتبة الباب، بدت متعبة، شاحبة، وكأنها عائدة من عالم الأموات، لكنّ هدوءًا غريبًا يحيط بها.

توسطت صالة المنزل، نظرت إلى والدتها التي اندفعت نحوها كالعاصفة الغاضبة، وقبل أن تنطق رفعت دليلة يدها وقالت بهدوء يشوبه سر غامض: لدي شيء أريد إخباركم به.

توقفت عظيمة، لكن غضبها لم يتوقف أو يهدأ، حاولت قمع ذلك الشعور الذي رغب في تمزيقها، لكنّها تماسكت من أجل العائلة ولكي لا تحاول دليلة إفساد زفافها مرة أخرى.

اجتمع أفراد العائلة حولها في دائرة مشحونة بالترقب، بينما قلب فاروق يضرب كالطبل بين ضلوعه، قلقًا مما قد يأتي، تقدمت نحو والدتها، التي

كانت على وشك أن ينفجر صمتها، وقالت بنبرة هادئة: رأيت محمود... جاءني في الحلم.

عمت حالة من الصمت المفاجئ، ليمحو عن كاهلها تلك الفوضى المدمرة التي كادت أن تبتلعها، فجأة تلألأت عينا عظيمة، وكأنّ اسم ابنها هو الترياق الذي أطلق سحره، ليعيد إليها شريطًا من الذكريات التي كان قلبها يهيم في انتظارها، فتقدمت بخطوات ثقيلة، وهمست بنبرة هشة تكاد تشقها الآلام: محمود؟

لتتابع دليلة حديثها بهدوء بالغ: قال لي أن أعطي لعبته لأمي وأوصاني برسالة إليكِ، فهو يريدني أن أستكمل الطريق الذي طالما حلمتِ به أنتِ وأبي له، ثم عانقني بشدة، ووضع اللعبة في يدي، وأشار لي عن مكانها.

سقطت كلماتها كالسهم، ليصيب قلب عظيمة، ويثير داخلها آلامًا كانت ساكنة تحت طبقات الزمن، ودموعًا تجمدت لسنوات.

بخطوات مرتجفة، تقدمت نحوها ثمّ مدّت يدها وأخذت اللعبة، التي كانت تمثل ماضيًا يحمل في طياته كل ما عجزت عن التعبير عنه.

فهمست بصوت منكسر، متهدج بحزن عميق: هذه لعبته المفضلة، كيف عادت؟ ظننت أنها ضاعت منذ زمن بعيد.

الجميع في حالة ذهول، شفاههم مغلقة، وأعينهم تراقب المشهد بعجز، كل منهم يحمل سؤالًا يثقل صدره، لكنه لا يجرؤ على النطق به، وكأن الصمت

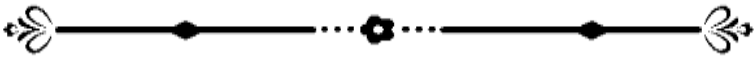

قد قيدهم قسرًا، خوفًا من الإجابات الكاذبة التي قد تكشف ما يخبئه كل سؤال من حقائق مُرة.

أغمضت دليلة عينيها براحة ظنت أنها لن تعود وراح قلبها يردد اسم آدم.

****

(14) فاصـــــل ونعـــــــود

لا تيــاس، فقــد توقظك الصـفعات كمـا تفعـل الحيــاة.

قفزت الفرحة في قلب دليلة بعد أن وافقت والدتها أخيرًا على عودتها للدراسة، هرعت إلى غرفتها، تملأ حقيبتها بحماس لا يوصف، لتستعد للعودة إلى الحياة التي افتقدتها.

في خضم هذا الحماس، لم تفارقها صورة واحدة... آدم، كيف تبدلت الأقدار بهذه السرعة؟ ولماذا يخفق قلبها بشدة كلما تذكرته؟

بيدين متسارعتين كانت تجمع أغراضها، تحاول إنهاء كل شيء سريعًا، وكأنّ لقاءها به كان أقرب مما تتخيل، أفكار كثيرة ازدحمت في عقلها، تبحث عن إجابات لتساؤلات كانت كامنة في أعماقها، لكن وسط هذا الزخم، توقفت فجأة على صوت شقيقتها فاطمة التي وقفت عند الباب، مرسومة على وجهها ملامح عبوس ساخر، قالت بنبرة لا تخلو من الاستهزاء: لا تفرحي كثيرًا، الأمور لن تسير بهذا اليسر.

توقفت دليلة، التفتت نحوها، والفضول يعتلي ملامحها: ماذا تعنين؟

ردت فاطمة ببرود: لن تعودي للدراسة قبل أن يتم زفافك... أم أنكِ نسيتِ ذلك؟

شهقت دليلة بدهشة: زفاف؟! عن أي زفاف تتحدثين؟ لقد وافقت أمي على دراستي، كيف لي أن أواصل إن تزوجت؟

ابتسمت فاطمة، وقد شعرت بلذة تخريب فرحتها: لهذا أخبرتكِ ألا ترفعي سقف أحلامك.

شعرت بوخزة مؤلمة في قلبها، وكأنّ الكلمات ضربتها في صميم أحلامها، لم تستطع مقاومة الرغبة الجامحة في رؤية آدم الآن، وكأن وجوده وحده يمكنه أن يخفف من وطأة هذه اللحظة.

.....

في منزل قاسم

بدأ الليل ينسدل ويغمر القرية بأجواء من الهدوء الخادع، لم يعلم أحد أن بداخل منزل قاسم الشرقاوي، اندلعت حرائق المكر والغضب، كانت نظراته مشتعلة بنيران الانتقام، بينما خطواته الثابتة على الأرض تدب بقوة تكاد تخترقها، رفع رأسه نحو عظيمة، عيناه تقدحان شررًا لا يُطفأ: كيف سمحتِ بهذا؟

انفجر بصوتٍ أجش مليء بالاستنكار وتحدث قائلًا: كيف وافقتِ على سفرها لمجرد أنها قالت رأت محمود في الحلم؟ هل فقدتِ عقلك؟

عظيمة التي كانت جالسة في زاوية الغرفة، لم ترفع عينيها عن الأرض، بدت هادئة، هدوءًا يشي بغليان داخلي، لم تُجبه، تركته يُفرغ نوبة غضبه، ويدور حول الغرفة مثل نمرٍ محاصر، عيناه تضيقان مع كل خطوة يخطوها.

صمت هنيهة، ثم تابع بحدةٍ أكبر: تجازفين بسمعة العائلة، وتتركين ابنتك تفعل ما تشاء لتهدم قوانيننا وعاداتنا.

استدار مبتعدًا عنها بعد أن انتهى، ثم التفت لها واستطرد قوله:

محمود مات، عليكِ أن توقظي نفسكِ من هذا الوهم.

رفعت رأسها ببطء، نظرت إليه بعينين تحملان ثباتًا لم يتوقعه، لم يكن صمتها هروبًا؛ بل كان قرارًا صارمًا، ثم أردفت قائلة: لا تظن أنّني بهذا الغباء كي أصدق كل ما يقال يا قاسم، لكنّ الحلمَ حقيقيّ، ودليلة رأت محمود، تلك اللعبة التي أحضرتها لا يعلم بشأنها سواه هو فقط، لا يمكن أن تكون هذه رسالة وهمية.

اقترب منها، جبهته معقدة، وكأن كلماته تختنق في حلقه من الغضب، ضرب عصاه على الأرض بقوة وقال: رسالة! الموتى لا يرسلون رسائل عبر الأحلام يا ابنة عمي، كيف تُصدقين كذبتها، كيف انطلت عليكِ تلك الخدعة؟

بنبرة لا تقبل الجدل، قاطعته قائلة: لقد نظرت في عينيها، إنّه ليس وهمًا، إنها الحقيقة التي ترفض رؤيتها، محمود أراد أن يبعث برسالته إلينا من خلالها، وأنا أصدق.

توقف للحظة، شعر بأن الجدار الذي بينهما قد أصبح غير قابل للاختراق، حدق فيها وهو يشعر بالعجز للمرة الأولى، كل كلمة تفوه بها تبددت في الهواء، كأنها لم تصل إليها،

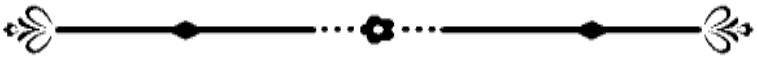

حاول أن يفتح فمه ليتحدث مرة أخرى، لكنها رفعت يدها بحزم قاطع، تسد الطريق أمام أي كلمة، نظرتها ثابتة، وعيناها مشتعلة بصلابة غير معهودة قالت بنبرة لا تقبل النقاش، وكأنها تقطع آخر خيوط الحوار: كفى يا قاسم! دليلة ستسافر، لتحقق حلم محمود.

غادرت الغرفة وتركته يستشيط غضبًا، يلقي بخيباته في ظل الحائط.

في منزل فاروق

ما زالت دليلة غارقة في انتظار الحكم الأخير، وبين ضلوعها يشتعل شيء كالنار، هل ستتزوج حقًا قبل أن تسافر؟ وماذا سيكون مصيرها إن حدث ذلك؟ أفكارها تتكالب عليها كعاصفة، تُنهك روحها حتى باتت على شفا الانفجار.

وفي لحظة غضب، ألقت بحقيبتها على الأرض بقوة، وكأنها تحاول التخلص من ثقل همومها، لم تنتبه إلى الباب وهو يفتح ببطء، دلف والدها إلى الغرفة، خطواته بطيئة، ووجهه يحمل مزيجًا من الهدوء والأسى، وقف أمام ملابسها المبعثرة، وأسند كلتا يديه على عصاه، ينظر إليها بعمقٍ، دليلة وقد فاجأها حضوره، وقفت بسرعة، وكأنما استعادت توازنها الجسدي محاولة لإخفاء الفوضى التي تعتريها.

اعتذرت بعينين متوسلتين، لكنّها لم تستطع أن تمحو آثار لحظتها المندفعة، اقترب منها وبصوته الهادئ الذي يحمل أكثر مما يُقال، سأل: هل تعلمين ماذا سيحدث الآن؟

لم تجبه، علقت الكلمات في حلقها، وكل ما أرادت قوله ضاع في متاهات مشاعرها المتصارعة، فاسترسل حديثه دون أن ينتظر ردًا:

أنتِ تسكنين قلب والدكِ وهذا ليس سرًا بيننا، لهذا لن أُطيل عليكِ الحديث، ولكن لديّ سؤال واحد وأنتظر منكِ إجابة صادقة. توقف قليلاً، ثمّ أضاف بنبرة جادة: كيف علمتِ بشأن اللعبة الخشبية؟

في تلك اللحظة ابتلعت أنفاسها للحظات، سؤالًا بسيطًا، لكنّه حمل معه شلالًا من الحزن يتدفق داخلها بلا هوادة، حاولت جاهدة أن تبتلع تلك الغصة التي تعتمل داخل صدرها.

وللمرة الأولى اختلقت كلمات كاذبة في رأسها، وصنعت منها قصة وهمية، وقالت بصوت هادئ متردد: لقد رأيته، يا أبي... جاء إليّ، رأيته ينبش في الأرض تحت شجر النخيل خلف المنزل، وأخرج اللعبة.

سقطت كذبتها كحجر يسقط في ماء راكد، أما والدها، فلم يُظهر أي شك؛ بل اكتفى بأخذ نفس عميق، كأنه يستعد لتقبل الواقع كما هو، ربت على كتفها بحنان، ثم ابتسم تلك الابتسامة الهادئة التي تحمل في طياتها الكثير من الرضا المختلط بالأسى، وأردف قائلًا: حسنًا يا دليلة، الآن يمكنك جمع

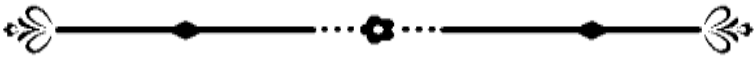

أغراضك من جديد، لقد وصلني خبر أن ابن عمك قد تم استدعاؤه للجيش مرة أخرى، وسيتم تأجيل الزفاف.

فرحة غامرة اجتاحتها كالموج الهادر، لكنها لم تكن قادرة على إظهار كل ما بداخلها، يراوغها شعور بأنها تريد أن تعانق العالم كله، أن تحتفل بحريتها المؤقتة، فلم يكن يسيرًا عليها أن تنسج كل تلك الأكاذيب لتصل إلى مبتغاها، فهي لم تدرك أن هذا الفعل كان أول خطوة نحو انحرافها عن دربها المألوف، لكن الأمر وقع، وانتهى بلا رجعة.

****

(15) هارمونيكـــــــــا

السعادةُ نسيمٌ خفيّ، لا يُرى، لكنّه يتغلغل في أعماق الروح.

وصلت دليلة إلى محطة القاهرة، وكأنّ الزمن قرر أن يعيد نفسه، لكن بوجه جديد، كل خطوة كانت ترتطم بالأرض كخُطى النصر، بينما الزحام، الفوضى والأصوات العالية استقبلتها كما تستقبل الجماهير بطلة عائدة.
فجأة، اختلطت الأصوات بصوت نداء عميق: هل أنتِ دليلة؟ هذا الصوت قد انتشلها من كل ما حولها، وتسارعت دقات قلبها في صدرها، تمالكت نفسها، والتفتت بوجه مشرق، لكن الابتسامة التي ارتسمت على شفتيها سرعان ما تلاشت عندما رأت شابًا لم تكن تتوقعه، يمد يده ويتقدم إليها قائلًا: أنا السائق، أرسلني السيد آدم لإيصالك.
غادرت معه، وقلبها لا يزال ينبض بالحماسة والقلق في آن واحد، بينما الفضول يتسرب إلى أعماقها، تتوق للوصول بأسرع ما يمكن، وتكتشف حقيقة ما ينتظرها.

.....

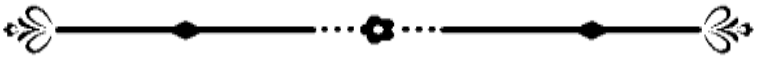

في منزل قاسم

صارت الأفكار تتخبط داخل عقل قاسم، يزرع الغرفة بالخراب ويقذف بالأشياء في كل اتجاه، الجميع يتجنب الاقتراب منه، بينما موجة الجدل والضجيج تملأ الأجواء، يردد اسم دليلة كأنها تعويذة الشر التي استحوذت عليه.

عادت حفيظة في الوقت المناسب، وأمسكت به قبل أن ينقض على الطاولة الزجاجية لتدميرها، حاولت تهدئته، أمرت الجميع بالخروج، أخذت نفسًا عميقًا، أمسكت يده بحزم حتى جلس محاولًا كبح ثورة البركان داخله، ظل جالسًا وعيناه مثبتتان على الأرض كما لو ينوي اختراقها، ربتت على يده وقالت بصوت يفيض بالثقة: لا تخف، لن نتركها تستمتع بنصرها، وكما انتصرنا على زوجة ابنة عمك في الماضي، وقضينا على بذرتها الملعونة سنفعل مع ابنة أخيك وسنحول بينها وبين ما تسعى لتحقيقه، حتى نقضم تمردها.

التفت إليها وبابتسامة خبيثة قال: مبارك لكِ على هذا العقل يا حفيظة، قريبًا ستصبح دليلة عبرة لكل بنات العائلة.

.....

القاهرة

عادت إلى شقتها والفرحة تغمر قلبها، يكتنفها حماس عارم لبدء حياتها الجديدة، لهذا خلعت عن كاهلها رداء عائلتها وقد عزمت على عدم ارتدائه مرة أخرى.

اندفعت نحو النافذة التي تطل على بؤرة حلمها، أطلقت العنان للكمد الذي كان يعشش داخل قلبها؛ فانداح في الهواء كألم يتلاشى مع الأفق، وبينما كانت غارقة في تلك اللحظة، اندمجت مع النغمات الموسيقية الهادئة التي تسللت إلى مسامعها، سيمفونية رقيقة حملتها بألفة إلى عازفها، دون أن تدرك حاولت أن تتبّع مصدر الصوت عبر النافذة، لكنّه ظلّ غامضًا رغم قربه، وفجأة، سكن الصوت، فتنهدت بعمق ثمّ استدارت لتجد آدم يقف خلفها، اجتاحتها مشاعر متضاربة جعلتها متجمدة في مكانها لثوانٍ، تبادلا النظرات وتسللت بينهما موجة من الهدوء، كما لو أن عاصفة قد انتهت أخيرًا، حتى قاطعها بصوته الهادئ: حمداً لله على السلامة.

أفاقت من شرودها، وأجابت بتلعثم: شكرًا.

ابتسم بسخرية، مما جعلها تعبس، وقبل أن تتحول اللحظة إلى صراع، أضاف بسرعة: مجرد مزحة، لم أقصد إغضابك.

ابتسمت واقتربت منه، سألت بلهفة: أريدك أن تخبرني بالحقيقة، من أين أتيت باللعبة؟ كيف علمت بها؟

تنهد بعمق، ثمّ اتجه نحو النافذة، وأردف بصوت هامس: ثمة أمور كثيرة عليكِ أن تعرفيها، لكن الآن لقد أصبحت جزءًا من خطة محكمة، عائلتك الآن تراقبك أكثر من ذي قبل وستكون مهمتك القادمة أشد صعوبة.

استمعت إليه بتركيز، وهو يواصل حديثه: أعلم أن ذهنك مليء بالتساؤلات، سأجيبك عنها، لكن يجب أن تدركي أنني لستُ ضدك؛ بل أنا معكِ وسأظل أساندك حتى تحققي هدفك.

لم تستطع مجاراته، تلك الفتاة المندفعة والجريئة، وقفت أمامه صامتة، قلبها ينبض بشدة، وكأنّ دقاته على وشك تمزيق ضلوعها.

اقترب بخطوات واثقة، واتسعت ابتسامته بثبات، وأردف بصوتٍ حازم:

لا تسمحي لهم أن يضعفوا عزيمتك، وهذا الزواج فقد طُويت صفحته وعندما يحين الموعد مرة أخرى، ستكونين قد قطعتِ شوطًا كبيرًا نحو غايتك.

اندحرت مشاعر الخوف من أعماقها كأنها دخان انقشع مع أول شعاع للنهار، وأسقطت عالمها القديم خلف ظهرها دون أدنى تردد، وفي تلك اللحظات الفارقة، اتخذت قرارًا لا عودة فيه، ماضية نحو عالم كان مجرد حلم، ليصبح الآن واقعًا أكثر جرأة.

****

(16) بـــدايـــة ونهـــايـــة

يتسلل الحب خفيةً كضيف غير مدعو، لا يطرق الأبواب، لكنه ينسج حول القلب قيوده.

فتحت الجامعة أبوابها لدليلة، استقبلتها كابنة غائبة عادت إلى أحضان أمها، تجمع حولها زميلاتها بفرح كبير، وانهالت الأسئلة عن سبب غيابها المفاجئ، لكنها حملت تلك الأسئلة كفراشة تتنقل بخفة، متجنبة التفاصيل، استأنفت حياتها، حيث عادت الحرية تحلق حولها، لتبرز لها جمال العالم الذي تعيش فيه، وأصبح آدم مؤنسها في الحياة، فلم تبدأ يومها إلا بوجوده.

في إحدى الليالي اخترق مسامعها صوت العازف مرة أخرى، فانتفضت عازمة على أن تعرف من أين يأتي الصوت، راحت تدور حول نفسها وقد نالت منها الحيرة والفضول حتى تفاجأت بالصوت قادم من داخل المنزل، تجمد جسدها كأنها صُلبت في الأرض، وهي ترى آدم ممسكًا بآلة الهارمونيكا يعزف عليها تلك المقطوعة التي تشاركها لحظاتها المؤنسة.

حديثٌ لم يقَل لكن رسم الكثير من الصور التي تشبث كلاهما بها لينطلق وهج حب جديد دون أي سابق إنذار.

.....

مرت الأشهر الأولى من تلك العلاقة على جسر مذبذب، حيث وأدت دليلة أصولها وجذورها، وامتلأ قلبها بحبٍ صامت عميق لا يعرف البديل سوى وجود آدم إلى جانبها..

ذات يوم، اصطحبها إلى الخارج، الأمر الذي أصبح طقسًا روتينيًا لحياتهما، جلسا في مطعم راقٍ، استقبلهما المكان بترحاب دافئ، وبينما هما جالسان، شعرت بيد تلمس كتفها برفق، التفتت لتجد رجلًا يقف خلفها؛ فاشتعلت الغيرة والغضب في قلب آدم، رفع حاجبيه بنظرة ساخطة، مما جعل الرجل يتراجع بارتباك، سألته دليلة، والدهشة تعتلي وجهها: من أنت!

ابتسم الرجل بتلقائية وأجاب: ألم تتذكريني! لقد تقابلنا في حفلٍ، ذلك الذي كان على متن السفينة، وقضينا وقتًا رائعًا حتى الصباح.

انهالت كلمات الرجل عليها كالصاعقة، تزلزل كيانها حتى أوشك قلبها على الانهيار من هول الصدمة، تبادلت مع آدم نظرات محتقنة، وكأنّ السّخط قد استقر في أعماقه، يتحين لحظة الانفجار المحتومة.

اندفعت دليلة برد عنيف كالسهم القاتل؛ فأجبرت الرجل على الرحيل في لحظة، قبل أن يختتق بكلماتها، التفتت نحو آدم، الذي بدا وكأن البركان في داخله على وشك الانفجار، وفي لحظة خاطفة، تبدل من الحبيب الهادئ إلى وحشٍ هائج، عيناه تلمعان بالحنق، صاح بصوتٍ كالرعد: أكنتُ غافلًا حين ظننت أن حريتك لا تعني تحطيم الأخلاق؟ بأي جرأة ارتكبتِ هذا الفعل؟

اشتعلت نظراته أكثر، حين قال بصوت مختنق بالبغض: إذًا قدومك تلك الليلة بعد أن قضيتِ وقتك على تلك السفينة كما قال هذا الشاب... قطع كلماته وهو يضرّس بأسنانه كمن يحاول سحق غضبه بين فكيه، وأصبحت شراسته تتجلى في كل حركة، وفجأة ارتفع صوته ليحمل معه قسوة غير مسبوقة: لولا أننا في مكان عام، لكنت جعلتك تندمين أشد الندم، يا ابنة فاروق.

في تلك اللحظة عيناه اشتعلتا بتهديد خفي قبل أن يضيف بمرارة: اشكري الله أن والدك لا يعلم بما فعلتهِ، وإلا لكان الوضع مختلفًا تمامًا.

كانت الصدمة تنعكس على وجهها، بينما تحولت مشاعر الحب إلى معركة ضارية، لم تلتزم بالصمت؛ بل انفجرت من شدة الغضب، وقامت من مكانها، طرقت الطاولة بقوة لا تقل عنه، قائلة بصوت حازم:

إياك أن تجرؤ على لفظ اسم دليلة فاروق الشرقاوي!

قالتها وهي تتقدم نحوه بخطوات ثابتة، غير مبالية بالأعين التي تترصد صراعهما، عيناها تشتعلان بالتحدي وكأن كل خطوة تحمل ثقل كبريائها الجريح.

توقفت أمامه مباشرة، رفعت رأسها بشموخٍ لا يقبل الانكسار، وأضافت بصوت يقطر احتقارًا: أنا أكبر من أن تُلقي عليّ حكمك، وأنت أصغر بكثير من أن تكون قاضيًا عليّ.

اقتربت أكثر، حتى باتت المسافة بينهما تكاد تختفي، وأردفت بصوت منخفض لكنه حاد كالسيف: هذه ستكون آخر مرة تظن فيها أن لك الحق في مخاطبتي بهذه الطريقة الحقيرة، أو أن تلطخ اسمي بتلك الاتهامات القذرة.

شعر آدم بالكلمات كجمرة تحرق قلبه، وكل إهانة تُسعر نيران غضبه أكثر، لكنه بصعوبة ابتلع الكلمات، قبل أن يفقد سيطرته وتسوء الأمور أكثر، رحلا معًا، لكنّ شعورًا جديدًا نما بينهما بالفصل الجارف، فقد جاءا بقلب واحد، وخرجا كغريبين تفصلهما مسافات من الألم، بذرة الحب التي أوشكت أن تثمر بينهما، تحولت إلى سلاح ذي حدين، يطعن كلاهما في كبريائه، ويغذي صراعًا داخليًا لا يتوقف.

انتهى لقاء العشاق كما ينتهي الليل، وتسلل الفجر ببطء، تاركًا خلفه بقايا خانقة من المشاعر المتصارعة، وأصبح اللقاء بينهما أشبه ببركان هدأ بعد فوران، لكن دخانه لا يزال يخنق السماء.

احتدمت العلاقة حد الاشتعال، ودليلة لم تتوانَ عن إظهار حنقها البالغ، طاردة إياه من حياتها بقرار متفجر.

الكبرياء والغرور أصاباها معًا، ولم تتقبل حقيقة أنه رجل حر، حتى وإن كانت الغيرة قد أخذته بعيدًا عن رشده، وجعلته يثور بطرق خاطئة، لكنّ ثورته لم تكن مجرد خطأ، بل تحولت إلى مرآةٍ عكست حبهما المتشابك، وحنقهما المشترك على هذا الحبّ الذي جعل لكل منهما أسبابه الخاصة.

كلاهما أخطأ، كلاهما صب غضبه في الاتجاه الخطأ، وجعلا الحب هو الجاني والمذنب، مع أنه كان الدافع الوحيد، لاختلاق الحماقات ومحو الملامح في ذات الوقت.

في تلك الليلة، تقابلا في البهو الذي يفصل بين شقتيهما، حيث كانت المصادفة أضعف من أن تفسر هذا اللقاء الذي كُتب له أن يحدث.

حيث رسم القدر مشهدًا جديدًا على مسرح حياتهما، توقفا للحظات نظراتهما كانت مشوشة، متكسرة، وكأنّ الهواء حولهما قد توقف في انتظار أول كلمة تهزم هذا السكون المطبق.

التفت آدم دون أن ينبس بكلمة، عابسًا، متجهًا نحو شقته، لكن حينما استدار مجددًا، كان صراخها قد مزق الصمت من حولهما، وقبل أن يتسنى له التفكير في أي رد فعل، جاءت صرخة الخادمة "نعمة" وهي تستنجد به، طالبة قدومه بأقصى سرعة.

****

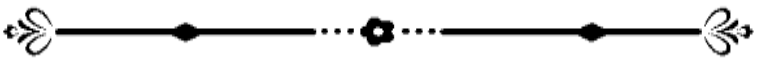

(17) كبــرياء ميـــت

حين يـخفق القلـب، يعـجز العقـل؛ فتنتـصر العاطـفة

دلف آدم سريعًا ليرى أمامه مشهدًا ينبض بالرعب، شعر أنّ المكان ابتلع أنفاسه دفعة واحدة وفجأة، تحول كل شيء، وانقلبت الموازين، كأنّ الزمن غضب عليهما وقرر الانتقام.

رؤيته لدليلة ملقاة على الأرض وعمها قاسم يصوب سلاحه نحوها جمد الدم في عروقه؛ رفع نظره إليهما، وجهاهما يحملان مزيجًا من الصمت القاتل والغضب الثائر.

حينها شعر بالأرض تحت قدميه بدت كأنها تتلاشى، واللحظة ثقيلة كصخرة كادت تتحطم فوق صدره، لم يكن يدري هل هذا كابوس أم أن القدر قرر أن يكتب نهاية لم يستطع تصورها؟

وقف آدم كالجدار بين دليلة الساقطة أرضًا وبين قاسم الذي كانت عيناه تشتعلان شرًا وعلى مقربة منهما يجلس والدها على المقعد وقد أغرقته الخيبة، عيناه متجمدتان بالألم، ملامحه تحمل علامات من الكدر، قبضت يداه على ذراعيّ المقعد كما لو كان يمنع نفسه من السقوط، بينما كان يرى حلمه ينهار ويتناثر كالرماد تحت قدميه، تمامًا كما انهارت ابنته أمامه.

رفع قاسم سلاحه بثبات نحوها، عيناه تلتهبان بشررٍ متوهج كجمرتين مشتعليتين، بشجاعة اندفع آدم ليقف حاجزًا أمامها، جسده يتحدى العاصفة التي كانت على وشك أن تلتهمها، حتى تفجر غضب الآخر في كلمة واحدة كطعنة حادة: خائنة، لقد دنستِ سمعة الشرقاوية... لا تستحقين سوى الموت.

كانت الرصاصة على وشك الانفجار، حين أمسك فاروق بيد أخيه ويداه ترتعشان، ليوقف ما لا يمكن إصلاحه، أخفض السلاح من يد قاسم، نظر إلى دليلة بعيونٍ متحجرة، الوجع يعصر قلبه حتى الاختناق، انحنى على ركبتيه، جلس أمامها، والهمّ قد أضاف إلى وجهه تجاعيد جديدة، تلاحقت في ذهنه لحظات عندما حملها طفلة بين ذراعيه، لمساتها الأولى، عناقها الذي كان يغمره بالدفء، وذكريات ثمينة تنهار الآن أمام عينيه.

ابنته، فخره، وكبرياؤه.. كل ذلك يُداس عليه الآن بلا رحمة، وضع يده برفقٍ على رأسها، ملامسًا شعرها المتناثر، كأنّه يحاول إرجاع الزمن إلى الوراء، محاولة يائسة لإخفاء العالم عنها فرفع شاله، ووضعه على كتفيها، كأنه يخفيها من عين الانتقام.

أخيرًا، تمالكت دليلة أنفاسها، وجسدها المرتعش يقترب منه بخطى ثقيلة كأنها تدنو من قلبها المكسور، زحفت على الأرض، يدها تتلمس الطريق نحوه، ثمّ أمسكت يده برفق لتقبلها، ودموعها تتساقط كالشلال الغزير، تروي

بها أرضًا جافة من الألم، همست بصوت مختنق، يتسلل منه الحزن والألم: أبي، وعدتك ألا أخذلك، ولم أفعل، صدقني، أخبرني ماذا فعلت؟

مسح فاروق دموعها عن وجنتيها، وهو يلفّ يديه حول وجهها برفق، ثم قال بصوت حازم مفعم بالثقة، يطغى عليه قوة لا تعترف بالضعف: لن أفقد ثقتي بابنتي، سأستمع إليكِ وحدكِ، ولا شيء آخر.

شعر قاسم أنّ خطته على وشك الفشل؛ فقاطع حديثهما بصوت صارخ:

ماذا تفعل يا أخي؟ كيف يمكنك أن تتجاهل ما رأيناه بأعيننا؟

رفع فاروق يده مشيرًا له بالتوقف، وارتجافة أصابعه تكشف عن صراع داخلي مرير، كأنه يحاول التشبث بآخر خيوط الصبر قبل أن ينهار.

التفت نحو ابنته الجاثية على ركبتيها أمامه، نظراتها الباكية والخوف الذي أعاد تشكيل ملامحها، جعله متخبط المشاعر، عاد قاسم ليزمجر مرة أخرى، صوته محملًا بالتحدي والاحتجاج:

أين كانت دليلة يا آدم، عندما جئنا إلى هنا للمرة الأولى؟

ساد الصمت، وارتبك آدم حتى بدت الكلمات تتهاوى من جوفه، وكأنها تفقد معناها قبل أن تتشكل.

نظراته المرتبكة تنقلت بين قاسم ودليلة، بدأ يصارع كلاهما ليسقط في حيرة بين قول الحقيقة ونداء ضميره لينقذها من مصير محتم.

لم ينتظر قاسم الإجابة، عندها أخرج ظرفًا من جيبه وألقاه أمام دليلة فتطايرت منه صورها التي ألتقطت على سطح السفينة، تفضح لحظات اليوم الذي قضته هناك.

حملت الصور، وازداد بكاؤها، أغمضت عينيها، تعتصر الدموع داخلهما، وقالت بصوت مملوء بالحرقة: لا يا أبي، ما تراه ليس الحقيقة.

عاد عمها ليطرح سؤاله مرة أخرى، وصوته يعلو بحدة، وعندما انتهى، صرخ آدم قائلاً:

حسنًا... حسنًا... أعلم أنّني أخطأت عندما تركتها ذلك اليوم، لكنّني لم أكن أعلم أنّها قضت تلك الليلة هناك.

تراجعت نبرة صوته، وارتخت معه كل ملامح فاروق، مستندًا بيديه إلى الأرض كأنما فقد كل قوى الحياة، اجتاحه الحزن العميق، واغرورقت عيناه بالدموع لأول مرة، في لحظة من الوهن الكامل والانكسار، بينما تلاشت صورة دليلة أمامه كأنها سراب.

تسارعت وتيرة الأحداث بسرعة مرعبة، والجميع في ذروة الغضب، بينما كانت عينا دليلة تفيض بالدموع وصوتها يختنق بآهات مختنقة، توسلت لأبيها أن يصدقها، مؤكدة أنّ ما حدث ليس كما يراه، لكن فاروق كان غارقًا في غيابات ضياع مشاعره، يُصارع غصة عميقة في قلبه، يكتسحها الألم.

أشار لآدم بالتقدم، فأمسك بيده ليساعده على النهوض، بينما بقيت دليلة جاثية على الأرض، تبكي بحرقة عند قدميه، وهمست بصوت خافت بالكاد يُسمع: لا يا أبي، لا تفعلها وتتركني.

لم ينظر إليها، بل جاء صوته كالصخر:

لقد وثقت بكِ، وأغلقت أذنيّ عن همسات الناس، ظننت أنكِ ستحملين رايتي وتعودين إليّ ابنتي التي أعتز بها إلى الأبد، لم أخشَ عليكِ، لكن غمرتني الأوهام وصدقت حلمًا كان أكثر خداعًا من الحقيقة نفسها.

وقعت كلماته كالسياط تجلد روحها بلا رحمة، ضربات قلبها ازدادت، لتعلن العد التنازلي لنهايتها، وكل شيء بدأ يخفت ضوؤه حتى راح يتداعى أمام عينيها.

حينها استغل قاسم الفرصة، رفع سلاحه مرة أخرى، لكن فاروق قبض على معصمه بقوة وصوته جاء قاطعًا ببرود قاتل: سنعود اليوم إلى البلدة، سنعلن وفاة ابنة فاروق الشرقاوي.

حاول قاسم أن يتحدث، لكن فاروق أوقفه مجددًا، رافعًا يده: كلمتي الأخيرة قيلت، والآن سنرحل لنستقبل العزاء.

في تلك اللحظة، سقط عالم دليلة، وأسدل الليل ستاره المظلم على حياتها، انهارت كل الآمال، ولفظتها الحياة من رحمها، معلنة لعنة جديدة ستُحل عليها.

(18) سقـــوط فـــارغ

في هاوية السقوط، تعزف الخيبات سيمفونية اليأس، فتغرق الروح بلا مرسى.

شقَّ الصباح عتمة الليل، لكنّه لم يكشف عن ضوئه، فقد كان ملبدًا بالغيوم الداكنة، وما زالت دليلة منكبة على الأرض، روحها غارقة في صدمة مميتة، كأنّ الزمن توقف عند لحظة الخسارة، انزاحت عباءة فاروق الشرقاوي عنها، تلك العباءة التي كانت تحيطها كدرع منيع يصونها من صدمات الزمن، الآن تواجه حزنها، وحيدة، عارية كليًا أمام قسوة الحياة، بلا سند ولا مأوى.

قضت نعمة الخادمة ليلها وهي تراقبها عن كثب، مشدوهة بين خوف الاقتراب وعجزها عن الابتعاد، كأنما تخشى أن تنكسر دليلة إن لم تكن بجانبها، وفي ذات الوقت، تتردد في لمس ألمها العميق.

لم تستطع أن تشاهدها وهي تذبل بهذا الشكل، هرعت إلى آدم، بدأت تطرق على بابه بعنف، لكن لم يكن هناك من جواب، وقبل أن يتملكها اليأس، سمعت صوت المصعد يتوقف، خرج منه فاندفعت نحوه بذعر مستنجدة به، ما إن رآها حتى أدرك أن كارثة أخرى قد حلت.

أسرع إليها ونبضات قلبه تعلو وتهبط في قوة غير مسبوقة، حدثه قلبه أنّ هناك ألمًا يفتك به، تيقن أنّ دليلة يحدث معها أمرٌ خطيرٌ، وحين فتح الباب، كان الفراغ ينتظره... فهي ليست هناك.

حدقت نعمة بحيرة وارتباك، راحت تهتف باسمها وكأنّ صدى صوتها يحاول إحياء ما اختفى، وفجأة دوى صوت طرقة عنيفة، ركض آدم إلى المطبخ، وهناك... تجمدت أنفاسه، وجدها على الأرض غارقة في دمائها، هكذا هو الموت في كثير من الأحيان يصبح هو الملجأ الآمن لنا المأوى الذي نحتمي به عندما تغتالنا الحياة.

حملها بسرعة، قلبه تمزق أمام عينيه وهي بين يديه، وجهها الباهت يخبره أنّ النور الذي كان يضيئه قد خبا إلى الأبد.

.....

في غرفة تكتنفها الجدران الداكنة، كان السكون يطوق المكان، بينما جلس قاسم على كرسيه المعتاد، وابتسامة نصر باردة تتراقص على ثغره، لم يكن هذا الهدوء سوى قناع يخفي خلفه عاصفة من الحقد والكره، تجثم في أعماقه، وتتسلل إلى روحه لتغرس فيها شعورًا مشؤومًا بما هو قادم، وكأنّ هواء الغرفة ذاته يردد أنفاس الشر.

دلفت حفيظة الغرفة بخطوات واثقة، نظرتها تحمل مزيجًا من الرضا والتشفي وقالت بصوتٍ هادئٍ مشحونٍ بالزهو: أخيرًا، قضينا على البذرة الفاسدة.

ألقى قاسم نظرة عميقة على زوجته، وعيناه تومضان بوميض من الشر وقال: كانت دليلة كالنبتة الفاسدة في أرض معطاءة، ولا بد من اقتلاعها قبل أن تفسد ما حولها، الآن باتت العائلة ملكًا لنا، دون أي تهديد.

ساد بينهما الصمت، بينما ارتسمت على شفاههما ابتسامات باردة، كأنها مرآة تعكس ما يستتر خلفها من نوايا سوداء، فالأمر تجاوز حدود الانتقام، ليكشف عن نار متأججة تتغذى على الرغبة في الهيمنة والسيطرة على العائلة، لهذا لم يكن نجاحه في التخلص من دليلة مجرد غاية بحد ذاتها، بل كان إثباتًا دامغًا لعظمته، وسطوته المطلقة، وكأنما يقول: أنا السيد هنا، ولا مكان لمن تسول له نفسه أن تتمرد.

أما حفيظة، فانتصارها أبعد من كونه مجرد انتصار ماديّ وخنق مكانة دليلة التي تهدد بمكانة رفيعة كوالدتها؛ بل كونه انتقامًا شخصيًا عميقَ الجذور. شعور مشوب في رؤية عظيمة تتهاوى، برؤية ابنتها تُكسر ويُكسر معها وعاء كبرياءها هي وفاروق.

لمعت عينا الاثنين بشيء من الخبث، ثمّ همس قاسم بنبرة ملؤها القسوة: الأجمل من كلّ هذا أنّها لن تدرك يومًا كيف تمكنا منها، ظنت أنها تستطيع أن تحاربنا، لكنّها سقطت في الشرك الذي نصبناه لها دون أن تشعر.

كانت خطته محكمة كما لو كانت تعويذة سحرية، راقبها عن كثب، متصيدًا كلّ فرصة لتوجيه ضربة قاضية، فهو يعلم كيف تفكر، ويعرف أنها سوف تسعى إلى لحظة الإفراج عن حريتها وستسقط في الفخ الذي أعده بحرفية.

عندما علم أنّها ستنطلق في تلك الرحلة المشؤومة، استغل الفرصة بسرعة مذهلة، سيطر على قبطان السفينة بإرسال أحد رجاله الذين كانوا يتبعونها، وأجبره بقوة المال على اتفاق يحول دون عودتها في نفس اليوم، لهذا استغل الأمر وفي سرعة خطط للإيقاع بأخيه هو الآخر بعد أن مهدت حفيظة أمر زواجها مرة أخرى، غادرا معًا إلى القاهرة وفي الطريق بدأ بتنفيذ خطته عازمًا على الإيقاع بها بشتى الطرق، لكن في لحظة حاسمة تدخل آدم بشجاعة، محبطًا مخططه الشرير ورغم هذه المحاولة الفاشلة، لم يكن للشر أن يستسلم بسهولة، فقد أعاد ترتيب أوراقه بخبث، استأنف خطته الماكرة عندما أرسل أحد الرجال بعض الصور التي تم التقاطها فور صعودها على السفينة ووسط مظاهر التحرر المبالغة وضعت في خانة الاتهام بذكاء ومهارة ملتقط الصورة.

ضحكت حفيظة بهدوء خبيث، وكأنما الشر تسلل في نبرة صوتها: أحسنت التصرف يا قاسم، فقد ظنت أنّها تستطيع أن تتحدانا، لكنّها لم تدرك أن أصابعنا هي التي تخط نهايات هذه القصص.

.....

بعد مرور ثلاثة أشهر

في غرفة المستشفى، كان الهدوء يسيطر على المكان، إلا من صوت الأجهزة التي ترصد حياة دليلة الهامدة، بدت شاحبة الوجه، شاردة العينين، وكأنّ روحها قد غادرت جسدها وبقيت فقط قشرة فارغة، منذ ثلاثة أشهر وهي على هذا النحو، لا كلمات، لا مشاعر ظاهرة، فقط نظرات جوفاء ترسلها إلى السقف أو الجدران المحيطة بها.

دخل آدم الغرفة بهدوء، خطواته ثقيلة مليئة بالحزن الذي يحمله، ظلّ يراقبها عن كثب، عاجزًا عن كسر الجدار الصامت الذي أحاط بها، وقف للحظة عند الباب، يأخذ نفسًا عميقًا، يحاول أن يجمع شجاعته ليتحدث معها مرة أخرى، رغم علمه بأنّ المحاولة قد تبوء بالفشل كما في المرات السابقة.

اقترب منها بخطى وئيدة، وعيناه تحملان دمعات خائنة أبت الانفلات. جلس بجانبها، ويده المرتجفة تلامس يدها الباردة كأنما يحاول إحياء ما بدا ساكنًا فيها، لم يكن صمتها مجرد غياب للكلمات؛ بل معركة محتدمة تخوضها في أعماقها، وكأنّها أحاطت نفسها بسور صلد يحجب عنها العالم، تقاوم عاصفة تعصف بروحها، عاجزة عن النطق بما يثقل كاهلها أو فهم ما ينهش وجدانها.

همس بصوت خافت، كأنّه يخشى أن يوقظ هذا السكون: دليلة، أنا هنا، لن أتركك أبدًا.

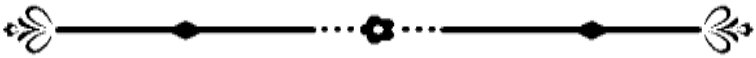

للحظة، ارتجفت يدها، ثمّ ارتفعت ببطء كأنها تحاول اختراق السكون، ولامست يده المستقرة فوق صدرها، كانت تلك اللمسة الضئيلة كنبضة حياة، كإعلانٍ خافتٍ أنّها ما زالت هنا، تقاوم بصمت.

في تلك اللحظة، فهم آدم ما لم يُقَل، كأنّها همست له بلا صوت:

أنا هنا... ما زلت أتنفس.

ولم يكن في حاجة إلى سماع الكلمات؛ فالصمت الممزوج بالمعنى كان كافيًا لينقل له نبض قلبها المحطم الذي لم يتوقف عن الإيمان به.

****

(19) ثُبلة مـرحـة

تُطعمنا الحياة قبلات زائفة، نبتلعها طمعًا في حلاوتها، فنختنق بعلقم فقدها.

خرجت دليلة من المستشفى، ممسكة بورقة جديدة عليها عبءٌ لا يُطاق، تحمل في طياتها إما وعدًا بالحياة أو حكمًا بالإقصاء، استقلت السيارة، لكنّها شعرت بوطأة ثقيلة تضغط على صدرها، أكبر بكثير مما كانت تشعر به من قبل، اتخذ آدم مسارًا مغايرًا عن الطريق الذي يؤدي إلى المنزل، انتبهت له؛ فبدأ القلق يتسلل إلى أعماقها، حاولت الاستفسار عن سبب هذا التغيير، لكنّه تجنب الإجابة، متلاعبًا بالوقت رغم علمه بأنّه لن يستطيع إخفاء الحقيقة طويلًا.

بعد دقائق من الصمت المشحون بالتوتر، توقفت السيارة أخيرًا في وجهتها غير المتوقعة، كان القلق يتساقط داخلها كالرمل المتدفق، وخوف جديد ينبض في أعماقها، تترقب ظهوره، ترجلت، وقفت على الأرض وكأنّها تقف على حافة الهاوية، نظرت حولها، الهواء مثقلًا بشعور خانق، تشعر أنّ وراء نظراته الهاربة تلك أمرًا قاسيًا على وشك أن يكشف الستار عنه.

أخذ آدم نفسًا عميقًا، ثمّ مال برأسه بعيدًا عنها، وهو يجاهد نفسه في محاولة إيجاد كلمات ليفجر لها الحقيقة المؤلمة، ليحاول إخبارها أنّ والدها قد منعها من العودة إلى المنزل.

تراجعت ببطء، شعرت بطعنة جديدة اخترقت قلبها؛ فالحياة من حولها تبدلت بشكلٍ مفاجئ، اختفت رائحة القاهرة التي كانت تعطر كل زاوية، وشعرت بضغط خانق يكاد يسحقها، رفعت عينيها إليه وقد اتقدَ الحزن فيهما كالجمر، حتى ابتلعت ريقها بصعوبة وسألته بصوتٍ متهدجٍ: جامعتي! هل تم سحب أوراقي؟

تنهد بعمق، وقال: لا.. هل نسيتِ أنّها منحة حصلتِ عليها بفضل تفوقكِ الدراسي؟

ابتسمت ابتسامة ساخرة، وقالت: وما فائدتها الآن؟

أمسك يدها بقوة، وقال بحزمٍ وثقةٍ: لا تقولي هذا مجددًا، ما دمت هنا، فلا شيء سينتهي.

فجأة شعرت أنّها على وشك خوض صراع مرير، تتساءل إذا كان هذا الأمل الجديد حقيقيًا أم مجرد سراب سيتبدد قريبًا؟

.....

عاشت دليلة تحت ظلال آدم، ترنو إلى تحقيق حلمها وسط بحر من التحديات، بدأت خطواتها في دراستها بحماسة، لكن هذا العام لم يكن في صالحها، تراجعت رويدًا.. رويدًا، حتى كثر غيابها وفشلت في الوفاء بشروط

المنحة، وابتعدت عن أي نشاط جماعي، مما أدى إلى سحبها منها، ودمار آخر بؤرة أمل كانت تتشبث بها.

في إحدى الليالي، جاء آدم لزيارتها، وجدها في حالة مزرية، غارقة في أعماق الحزن، لم يكن على علم بما جرى، فبدا له مشهدها المترنح كعاصفة مدوية، وحين أخبرته بفاجعة ما وقع، كان رد فعله صادمًا ومخالفًا لتوقعاتها، انفجر في وجهها، محدثًا فوضى عارمة، مما أصابها بالذهول.

لم ترَه هكذا من قبل، أصابتها الصدمة مما قال لها، أخذ يصرخ بكلمات ملؤها الغضب والتجريح: يكفي ما فعلتِه، حالتك هذه أنهت مستقبلك، عائلتك تعيش في سعادة، بينما أنتِ هنا تغرقين في حالة من الكآبة والندم، والدك لم يبالِ بأمرك، الجميع يعتبرونكِ ميتة، لماذا تواصلين تدمير نفسك؟ يكفي أنتِ تقتلين الحياة داخلك، هناك من اجتهدن وتخطين بنجاح ليعدن مرفوعات الرأس، أما ما تفعلينه؛ فأنا أشعر بالخجل من مجرد التفكير فيه.

كان الصراع في قلبها يشتعل بين الألم الذي تعانيه ورأي آدم القاسي، مما جعلها تتساءل عن حقيقة الأمل الذي يُحدثها عنه وأين يمكن أن تجد نورًا في عالم يبدو محاطًا بالظلام، كلّ معاناتها بدت وكأنّها تذوب في مهبّ الريح، بينما أفكارها تتلاطم في صراع داخلي مرير، بدأت تتلاشى جدران الرفض العنيدة التي بنتها داخل عقلها، وراح الشعور الذي حملته كراية

طوال حياتها يتمرد، متحولًا إلى إحساسٍ غامضٍ يفيض بالندم، وكأنّها فجأة تقف في مواجهة حقيقتها عارية.

عقلها المثقل بالصراعات اتهمها بالتقصير، ليس تجاه عائلتها فقط، بل تجاه نفسها أيضًا. ربما كان الفرار مجرد هروب من مواجهة معركة لم تستعد لها جيدًا.

نظرت إلى حياتها وكأنّها تقرأ كتابًا قديمًا للمرة الأولى، تُمعن في تفاصيله المتشابكة، تبحث عن نقطة البداية التي أخطأت فيها، بدت كل خياراتها كممرات مظلمة أغلقتها بإرادتها، أو لعلّها كانت أبوابًا لم تحاول طرقها من البداية.

في تلك اللحظة، استدار عقلها ليضع آدم في قلب أفكارها، ليس كشخص، بل كرمزٍ لما يمكن أن يعيد لها توازنها المفقود، فقد كان بالنسبة لها نافذة على عالمٍ لم تعرفه بعد، فرصة للتكفير عن زلاتها وإعادة بناء ما تهدم داخلها.

فنتساءل: هل ستكون قادرة على انتشال نفسها من هذا المستنقع النفسي؟ وهل يمكن لآدم أن يُعيد لها الإيمان بحياتها وبنفسها؟

كل ما شعرت به في تلك اللحظة هو مزيج من الضعف والتصميم، ضعفُ أمام الحاضر الذي بدا هائلًا، وتصميمُ على إيجاد مخرج، ولو من أكثر الزوايا ظلمة.

نظرت نحوه، كان واقفًا أمام النافذة، يحاول استجماع شتات نفسه وسط ضجيج أفكاره، لم تفكر دليلة لحظة واحدة، حملتها قدماها نحوه في حالة من الحاجة لعقلها وقلبها، اقتربت منه، فاجأته باحتضانها له من الخلف، تردد للحظة مذهولًا من جرأتها، لكنّها سكنت اضطرابه بلمستها، استدار إليها ببطءٍ، وتلاشى التوتر من ملامحه، لتحل مكانه نظرة دفءٍ لم يستطيعا مقاومتها.

مرّر يده بلطف على شعرها، فأغمضت عينيها، غارقة في شعورٍ ممزوجٍ بالأمان والثقة. تلاشت كلّ الزوابع حولهما، ووجدت نفسها تُصغي إلى دقات قلبه التي تردد لحنًا مألوفًا، كأنّها وُجدت فقط لتتناغم معه.

اقترب أكثر، والتقت أنفاسهما في همس غير مقصود، اعتصر داخله كل كلمات العشق التي لم تُقَل، فتمازجت أرواحهما في لحظة اختفت فيها كلّ الصراعات والحدود، الصواب والخطأ، وتبادل الحبّ وعدًا صامتًا، لا يحتاج إلى كلمات.

ومع انطفاء شعلة الانتظار، ارتقى حبهما إلى مستوى أسمى، حيث أصبحا جسدان بروح واحدة، وحملت اللحظة بداية جديدة، بعيدًا عن كلّ ما أثقل كاهلهما، وذهبا معًا في عالم نُسج فقط من أجلهما.

****

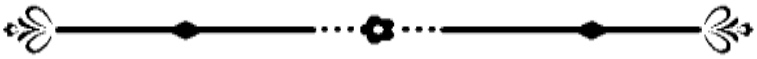

(20) مجـرد ألـــم

هدم المبادئ يجرّد الحرية من معناها، فيغدو التحرر فوضى تفتك بالقيم.

في لحظة غفلة، تحت ضباب كثيف يغلفها، تسلل الضوء عبر فتحات النافذة الخشبية كخيوط ذهبية سقطت على جسد دليلة لتبرز معالمه؛ فابتعدت محاولة فتح عينيها، كلّ شيء كان مشوشًا، حتى ضربت ذراعها بجسد آدم النائم بجوارها، شعور غليظ اجتاحها وهي تنظر إليه، في مشهد لم تتمنَّه قط، عيناها تتسعان بذهول، قلبها ينبض كطبل مجنون وهي تحاول استيعاب كيف انتهى بها الأمر إلى هذا المشهد وكأنها داخل فيلم رعب.

.....

بدأ آدم يستعيد وعيه، التفت إليها في نظرات تبحث عن بقايا نشوة ليلة أمس، وجدها منكمشة حول نفسها، تتنكر في صمتٍ، تئن بصوت خافت، فهم شعورها دون حاجة لكلمات، وعلم أنّها قد تكون غارقة في ندمٍ عميقٍ على ما وقع بينهما.

ارتدى قميصه بسرعة، حاول أن يتحدث، لكنّه لم يستطع تجاوز ملامحها الشاحبة وجسدها المتيبس، انتابه شعور بالخوف عليها؛ فقام ليحضر كوبًا من الماء وعندما عاد لم يجدها.

تجمدت الأشياء من حوله، تقطعت أنفاسه وهو يبحث بعينيه في كل مكان، بينما تراوده مخاوف مرعبة من أن تفعل شيئًا بنفسها.

اندفع إلى الخارج بخطوات متوترة، لكنّه توقف عند الباب حين أبصرها واقفة أمام النافذة.

كان وجهها مُثقلًا بملامح الانكسار، دموعها تسيل ببطء كأنها تعيد رسم آثار الألم على وجنتيها، بين يديها المرتجفتين أمسكت بورقة ممزقة، تحاول عبثًا لملمة شظاياها، وكأنّها تتشبث بآخر خيط يربطها بحلم بات على وشك الانهيار.

اقترب منها ببطء، شعر بمرارة تنهداتها، فراح يتلمس خطواته حذرًا، وتحدث بصوت هادئ: دليلة، أرجوكِ، لا تشعري بالندم مما حدث بيننا، كان علينا أن نجتمع منذ زمن، لكنّه القدر.

نظرت إليه، عيناها مشبعتان بالدموع، فبادرها بصوت مفعم بالعاطفة:

- لن أتركِ، سنتزوج.

حاول أن يملأ صوته بالطمأنينة، لكن صرخات الألم التي دفنتها في صمتها كانت أقوى من كلّ كلمات التعزية، أطبق ذراعيه حولها، محاولًا أن يكون ملاذها من العاصفة التي تهز كيانها، لكنها بقيت صامتة، تغمر نفسها في أعمق أعماق حزنها، وفجأة بادلته العناق لكن هذه المرة كانت أكثر ضعفًا.

.....

في قرية الشرقاوية كان الحزن قد نصب خيامه في قلب فاروق؛ فلا رياح النسيان ولا سطوة الزمن استطاعت اقتلاع جذوره، الجميع تظاهروا بأنّ العاصفة التي مزقت حياته لم تكن إلا حلمًا عابرًا، طمروها في ذاكرتهم كأنّها لم تكن، لا أحد يتجرأ على ذكر اسم دليلة أمامه، لكنّهم لا يدركون أنّ غيابها يحيا بداخله، ينبض في كل لحظة وكأنّ قلبه هو من يناديها.

ترك فاروق زمام أمور العائلة لأخيه؛ فتضخم الآخر كوحش استفاق على سلطة لم يكن يستحقها، كان يعلم ما سيفعله قاسم؛ لكنّه لم يعد يهتمّ بمظاهر القوة أو مركز العائلة، فما قيمة كل هذا بعد أن فقد قوته، لقد أخذت معها روحه، وتركته خاويًا؛ فروح الأب المتألمة تسير بينهم كظلٍ ثقيلٍ لا يُرى لكن يُشعر به، فهي لم تكن مجرد ابنته المدللة؛ بل قوته الخفية، السند الذي لا يعترف به الجميع سواه، لقد آمن بأنها ستصبح عصاه التي يتكئ عليها حين تضعف قدماه، لكنّها رحلت قبل أوانها؛ فانهار هو ولم يعد يسير؛ بل يجر ظلًا مهشمًا.

دليلة

أصبحت القاهرة كالمقبرة الواسعة التي ابتلعت أحلامها بلا رحمة، جلست تمعن النظر في ماضيها، تتساءل عن أفكارها التي اعتقدت يومًا أنها حصنها المنيع، الآن تشعر كأنّها تحطمت تحت وطأة الواقع، أين هي من تلك الأفكار التي كانت تتشبث بها؟

حاولت بناء عالمٍ بعيد عن عائلتها وعن القيود التي كبلتها، لكنّها لم تدرك كيف تسلّلت بعض الأفكار السامة إلى حياتها، نمت داخلها كأشواك، بدأت تخنقها ببطءٍ، وغرقت في أنانيةٍ مفرطةٍ، غفلت عن حقيقة أنّ لكلِّ فكرة وجهين، وقد نضل الطريق في اختيار الوجه الصحيح، لكنّ التمسك الأعمى بوجهٍ واحدٍ لا يعني سوى المزيد من الضياع.

جلست تستعيد ذكريات حياتها في الخفاء، حتى غمرها الغم والكدر، تنهمر دموعها دون أن يلاحظ آدم شيئًا، ذلك الرجل الذي ظلّ سندًا لها، لم يتركها ولو للحظة، أخذها بيديه لتعود إلى الجامعة، لكنّه لم يستطع إعادة الشمس إلى حياتها، أصبحت شمسُها خافتةً، روحها بهتت حتى كادت تختفي، التحدي الذي اعتقدت أنّها ستنتصر فيه، انهار أمامها، عجزت عن كسر القيود التي فرضتها عليها التقاليد، سقطت أمام أول اختبار ولم تقوَ على المواجهة.

تلك التي وأدت في قلبها حبَّ الحياة، الآن اختفى صوتها، حتى حريتها التي لطالما سعت للحصول عليها، فقدت السيطرة على توجيهها، وانجرفت نحو أسلوب حياة لم تتعمدها؛ فسقطت في منتصف الطريق.

تنهد الزمن وأخذ يعانقها بيأسٍ تملّكها عنوةً، عاشت هي وآدم تحت مظلة حبٍ هشٍ، خائفين من أن يتعرضا للنور؛ فيكشف زيف تلك العلاقة، مرت ثلاث سنوات كريحٍ عاتيةٍ لا تحمل معها سوى الفراغ، بريقها خبا تمامًا، ولم يعد لها أثر في عالمها المتهاوي، وذات يوم خرجت كعادتها تتجول

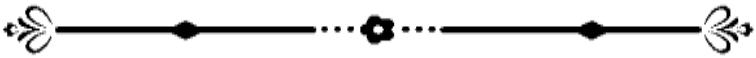

في أزقة المدينة القديمة جلست في مقهى صغير، تفوح منه روائح القهوة المعتقة والكتب المليئة بالغبار، كانت تتأمل حياتها وهي تنساب من بين يديها، فيما كانت الأخبار تتحدث عن العالم الذي يتغير من حولها، لكنّها شعرت وكأنّها تنتمي لعالم آخر، عالم أبعد من مدينة القاهرة التي عرفتها، عالم لم يعد بإمكانها الوصول إليه، وفي لحظة مباغتة، أدركت أنّها لم تعد تستطيع العيش في هذا السجن الذي بنته لنفسها، قررت أن تهدم كلّ الجدران التي شيدتها حول حياتها، واتخذت أول قرار حقيقي منذ سنوات: العودة إلى البلدة، حيث بدأ كلّ شيء.

****

(21) مـات ولـم يمـت

في عالمٍ توقفت فيه الحياة عن النبض، ظلّ الموت يتنفس بصمتٍ مميت، كأنه ينتظر لحظة الانفجار الأخير.

عادت دليلة إلى شقتها بخطوات جادة، وجدت آدم ينتظرها، القلق بادٍ في ملامحه التي أرهقها السهر والتفكير، لم يكن بحاجة إلى كلمات، عيناه تصرخان بالخوف عليها.

هرع نحوها بخطى سريعة، أمسك يديها بقوة، كأنه يخشى أن يفقدها في أي لحظة، قال بصوت مليء بالتوتر: دليلة كنت قلقًا عليكِ، أين كنتِ؟

حاولت الحفاظ على هدوئها رغم العاصفة التي تجتاحها من الداخل، لا تريد أن تزيدَ من قلقه؛ فارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة مصطنعة، قائلة: أنا بخير، لا داعي للقلق.

لم يقتنع، يعلم أنّ هناك ما تخفيه، جلس بجانبها، حاول كسر حاجز الصمت الذي سيطر عليهما؛ فأردف قائلًا: أفكر في مستقبلنا وفي عملك، أريد أن أراكِ تزدهرين، تملكين حدسًا رائعًا في مجال العمل ويجب أن يتحول إلى واقع، عليكِ أن تبني مستقبلك وتبرزي نجاحك.

كانت كلماته تحمل دعمًا غير مشروط، لكنّها في أعماقها شعرت بثقلها، وكأنّها حملٌ يتوجب التخلص منه، حاولت أن تبتسم من جديد، لكنّ

غصة في حلقها منعتها من ذلك، هي تعلم جيدًا ما يجب أن تفعله، خطتها واضحة في ذهنها، لكنّها لن تكشفها له الآن.

في صباح الخامس عشر من نوفمبر، استيقظت مذعورة على صوت طرقات متتابعة على نافذتها، لوهلة ظنت أنه آدم، لكن حينما تطلعت حولها، لم تجده، تزايدت الطرقات بإلحاح، أدركت أنها ليست سوى حبات المطر تضرب زجاج النافذة بعنف، ورغم اعتيادها على صوته، إلا أنّ قبضة غامضة عصرت قلبها دون أن تفهم سبب هذا الشعور المفاجئ، نهضت مسرعة، تبحث عن آدم في كلّ أرجاء الشقة، لكن عبثًا لم تجد سوى ورقة مطوية على الطاولة بجوار الفراش، كتب فيها "سافرت لأمرٍ هامٍ، سأتغيب عدة أيام وأعود سريعًا"

إلى جانب الرسالة، كان هناك ظرف يحتوي على بعض المال، ألقت الرسالة بعيدًا وكأنها تتخلص من عبء جديد، تقدمت نحو النافذة بخطوات مترددة وقلبها ينبض بخوف لا تفهم مصدره، أخذت نفسًا عميقًا، أغمضت عينيها محاولة إسكات الأفكار التي تتسلل إليها، تلك الأفكار التي تُشعل فتيل القلق في صدرها، التقطت الهاتف واتصلت به، وجدت هاتفه مغلقًا، توقفت للحظة، حاولت إقناع نفسها بأنّ الأمر لا يستدعي القلق، لكنّها شعرت بأنّ هناك ما هو أكبر من مجرد غيابه.

تجاهلت العاصفة العاتية التي تعصف بروحها، وأطبقت على فنجان القهوة الذي تركه وراءه، كأنما تبحث في عبيره عن لمسةٍ من دفءٍ غادر أعماقها

الباردة، جلست تنقب بين صفحات الجريدة، تلك التي كان آدم يشتريها لها يوميًا، حتى تجمدت نظرتها عند الخامس عشر من نوفمبر، تاريخ ميلاد والدها، وكأنّ الزمان قد أرسلها لتواجه ذكرى لا مفرّ منها.

اختلطت مشاعر الفرح بألم الفقد، واختلج صدرها موجة من الحزن العميق، تنهدت ببطءٍ، وأجبرت دموعها على التوقف، فقد عاهدت نفسها ألا تبكي، وقد شعرت بأنّ هذا اليوم ليس مصادفةً؛ بل دعوة من القدر للبدء من جديد، عاودتها أفكارها حول خطتها المؤجلة، وقررت أن تنفذها اليوم، وكأنّها تبحث عن بداية تعيد لها توازنها المفقود.

خطت خطواتها نحو محطة القطار، وعيناها تتفحصان أركان المكان الذي كان يومًا ما وطنًا لها، مألوفًا بأدق تفاصيله، لكنّه الآن يحمل في طياته غربة غير مرئية، مشبعة بذكريات مفقودة.

أربع سنوات مرت منذ أن وطأت قدماها هذا الرصيف للمرة الأولى، كان كلّ شيء حولها يشعّ بالأمل؛ صوت القطار وحركة المسافرين كانا يعزفان لحنًا لا ينتهي، أما اليوم، فها هي جالسة هناك، والخذلان يلتف حول قلبها كأغلال ثقيلة، الهواء البارد يخترق أعماقها والذكريات تتراقص في عقلها كما يتناثر الغبار في الرياح، فشعرت وكأنها عادت إلى بداية نهاية، لا تملك مفاتيحها ولا تعرف كيف ستحط رحالها.

وصل القطار إلى البلدة التي باتت في عينيها مقبرة واسعة، تغطيها عباءة الحزن الداكنة، وكأنّ الحياة قد هجرتها، وتركها الزمن سجينة كآبتها، كانت

السماء تنذر بالعاصفة، غيومها الثقيلة تحجب النور، وصوت الرعد يزمجر في الأفق كإنذار قاسٍ لما هو آتٍ، وكلما اقترب القطار من المحطة، تسارعت أنفاسها وكأنّ قلبها يخشى المواجهة. شعرت بشيءٍ غامضٍ يعتصر روحها، مزيج خانق من رهبة المجهول ووقع الأقدار التي تنتظرها عند الخطوة التالية.

توقف القطار أخيرًا، نظرت خارجًا، بدا المشهد ساكنًا على نحو مخيف، الوجوه التي اعتادت رؤيتها غائبة، وكل شيء يوحي بأن البلدة في حداد، البرد الذي اجتاحها لم يكن من الجو فقط؛ بل من مشاعر الخوف التي تسللت إلى قلبها، بدت القرية كأنها ميتة، والهدوء المخيف أثقل كاهلها.

سارت بخطوات مترددة نحو بيت أهلها، ومع اقترابها، ظهرت لها الجموع المتوقفة أمامه، النساء يرتدين السواد، وأصوات بكاء مكتوم يتصاعد من الداخل، في تلك اللحظة، شعرت أن الماضي عاد على عكازين ويُعيد المشهد الأخير، كل خطوة تخطوها كانت تزداد ثقلًا، كل ذكرى لوالدها راحت تطفو على السطح وتعتصر قلبها.

وقفت عند باب البيت وملامح والدها تجتاح ذاكرتها، ابتسامته الدافئة، صوته الحنون، طرقات عصاه وهي تضرب الأرض بقوة، خطت قدماها عتبة المنزل وما إن رأتها حفيظة زوجة عمها حتى اعترضت طريقها بنظرات قاسية، تتحدى كل ما تبقى لديها من صبر: لن تخطو قدميكِ المنزل؛ فالأموات لا يعودون.

صاحت عليها بحدة، محاولة قطع آخر خيط يربطها بماضيها، فقبضت دليلة على ذراعها بغضب وكراهية مكبوتة، لتبدأ معركة بينهما، مشتعلة بالعنف والصراع، تحدي حفيظة واجه عزم دليلة، وكلما ازداد الصدام بينهما، تفاقم الموقف حتى أوشك أن يتحول إلى حلبة صراع. وقف الحاضرون في صمت مخيف، يراقبون ما يحدث. ووسط المشاجرة، اندفعت فاطمة نحوهما، توقفت بينهما كجدار صلب، وبلطف مخادع أوقفتهما قبل أن يسوء الأمر أكثر، أفسحت لها الطريق، لكن أعين النساء المحيطة زادت من توترها، نظرات مليئة بالصمت المُدين، كأنهن يرين شبحًا عاد من هزائم الماضي، لم تنبس فاطمة بكلمة، فقط أشارت إليها بمرافقتها، فيما كانت النظرات توجهها نحو مصير مجهول، شعرت بأنّها غريبة وسط عالم ليس لها فيه أحد، كل شيء حولها يصرخ بالموت والرحيل.

اقتربت من غرفة والدها، لكن خطاها تجمدت في لحظة قاتمة، وكأنّ العالم بأسره توقف ليحبس أنفاسه معها، هناك شيء غامض بداخلها يقودها، شعور قوي يضرب في أعماق روحها، وصوت خفي يتردد في أذنيها كنداءٍ بعيد: هيا.. اقتربي.

نظرت نحو فاطمة التي وقفت جانبًا، ملامحها متجمدة كتمثالٍ خالٍ من الحياة، تتربص بما سيحدث، ثمّ نطقت بصوتٍ باردٍ وقاسٍ: لا تفعليها... يكفي ما جلبتِه بقدومك."

لكن دليلة تجاهلت كلماتها، مشاعرها مشتعلة برغبة جارفة لمعرفة ما يحدث، تقدمت نحو الباب، شعرت بقبضة تخنقها من الداخل، وكأنّ الهواء ذاته الذي يحيط بها يعاندها يحاصر أنفاسها ويثنيها عن المضي قدمًا.

كان الصوت الداخلي في أعماقها أقوى من كلّ شيء، صرخة خفية تنساب كعاصفة مكتومة: افتحي الباب! عليكِ أن تفعليها.

لم تكن تلك الكلمات مجرد أمر، بل نداء يغزوها، يجعلها تتأرجح بين الخوف والجرأة.

حاول الجميع منعها ووجوههم تتشح بالغضب، لكنّها لم تأبه، دفعت الباب بعنف، ليظهر أمامها المشهد، والدها مسجى على الفراش، جسده البارد تحيط به نظرات أقارب صامتين، تنزف أعينهم بدمعات حارقة.

واصلت التقدم حتى لاحت لها ملامحه التي اشتاقت لرؤيتها، وحين وقفت أمامه، انفجرت دموعها كطوفان جارف، وفجأة همس والدها باسمها: "دليلة" كان صوته ضعيفًا، لا ينبض بالحياة، لكنّه اخترق أعماقها كالسهم الأخير.

صرخت: "أبي" صوتها محشو برجاء يائس، كأنها تحاول الإمساك به قبل أن ينزلق من بين يديها، انطلقت كلماتها لتكون آخر ما سمعه، وانساقت كلماته إليها لتكون آخر ما نطق به.

توقف الزمن عندهما، ليشهد هذا الفراق الذي لا عودة منه، لحظة احتضنتها سحابة كثيفة من الحزن، تركت خلفها صمتًا أبديًا، وكأن العالم بأسره يعلن الحداد.

****

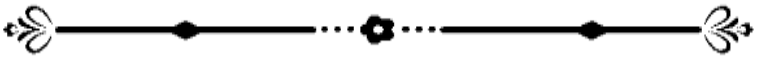

(22) وعصفت الشمـــــس

حين يُسدل الستار، لا تُمنح العبارات فرصة للبوح، فالصمت يغدو سيد المشهد، والظلام يبتلع النهاية دون أن ينطقها أحد.

استفاقت دليلة على واقع مبتور، مجرّدة من الأمان، ملقاة كجسدٍ مثقل في غرفة اختنقت بعتمتها، أحاطها الظلام كجدارٍ صلد، والحقيقة القاسية انغرست في أعماقها كمخلبٍ لا يرحم، انطلقت صرخاتها، لا استجداءً، بل عاصفة هوجاء تخترق سكون الليل المترقب. كانت تتلوى كمن يواجه أشباحًا غادرة، يداها تتحركان بجنونٍ، كأنهما تبحثان عن مخرجٍ من قيودٍ غير مرئية، عيناها غيمتان حبلى بالدموع، كشفتا عن طوفانٍ من الألم المكبوت، كل صرخةٍ منها أشبه بطعناتٍ غاضبة في صدر الصمت، صداها يتفجر في أرجاء الغرفة، كأنها تسعى لنسف جدران الواقع الذي سُجنت داخله.

.....

عادت فاطمة إلى الغرفة وعيناها متورمتان من أثر الغضب، كلماتها انطلقت كسهام مسمومة: الآن لم يعد لديكِ هنا من تنتمين إليه، ارحلي قبل أن يعلم عمي بقدومك.

لكنّها لم تُبالِ، وكأنها أغلقت نوافذ الوعي والإحساس، وفجأة خيّم على المكان صمت ثقيل، أشبه بفاصل نقلها إلى عالم آخر، عالم مُشوه تتلاشى فيه الملامح وتغيب فيه المعاني. شعرت للحظة وكأنها مقيدة داخل نفسها، تجردت من كلّ شيء إلا سكون خانق يمزق أعماقها.

وبينما كانت تغرق في دوامة من الجمود الروحي، انقطع الصمت بصوت الباب الذي فُتح بقوة، خطا آدم إلى الداخل، وطغى حضوره على الغرفة كظل غامض، رفعت عينيها نحوه، وجفت الكلمات على شفتيها، بدا كأنه طيفٌ غريبٌ، قادم من أعماق وهمها، كانت الدموع تغمر وجهها، وعيناها المتسعتان تحملان مزيجًا مروعًا من الصدمة والأسى، تساءلت في أعماقها المرتجفة: ما الذي يمكن أن يخبئه القدر أكثر من هذا؟

مرّت لحظات كأنّها دهر، حتى كسر آدم الصمت بصوت خافت حمل ثقل المواجهة: ما الذي أتى بكِ إلى هنا!

هزت رأسها بتوتر، كمن يحاول الهروب من سؤال يطارده، بينما وجهها يفضح اضطرابها، وكأنها ضاعت في دوامة الفقدان.

لكنّ اللحظة لم تمنحها فرصة للفهم، إذ اندفعت ابنة عمها إلى الغرفة، وجهها يحمل تحذيرًا عاجلًا: عليكِ أن ترحلي فورًا، لقد وصل لأبي خبر قدومك.

لكن المشهد لم يكن ليتوقف عند هذا الحد؛ ففي ذات اللحظة، رأت الفتاة تحمل طفلًا صغيرًا، خطواته تتسارع نحو آدم وصوته الطفولي يتردد: أبي!

"آآه"... لم تكن مجرد حرفين عابرين، بل نغمة مأساوية تختزل ألف وجعٍ، صوتٌ يحمل بين طياته شظايا منكسرة من الروح ذاتها.

أخذ الجميع نفسًا عميقًا كانوا في حاجة ماسة إليه، نظر آدم إلى زوجته التي ظهرت من العدم، أمرها بحمل الطفل والخروج من الغرفة؛ فغادرت بصمت هي وفاطمة دون اعتراض.

أصبحت الأجواء مشبعة بالتوتر، ورائحة الموت لم تفارق المكان، فجأة، بدأت دليلة تصرخ وتهوي بلكماتها نحو آدم، صرخاتها كانت مشحونة باليأس والألم، بينما آدم ظل ثابتًا كالصخرة، دون أن يظهر عليه أي علامة تراجع أو انكسار.

حتى بدأ يتحدث بصوت عميق، مشبع بالعاطفة المكبوتة التي ظلت لسنوات تُثقل قلبه، كلماته تخرج بتردد بين الاعتراف والندم، حاول الاقتراب منها، لكنه توقف فجأة عندما رأى التراجع في عينيها، نظرتها لم تكن عتابًا فقط؛ بل وجيعة، خوف، شعور بالخيانة.

فتحدث بصوت مبلل بالحزن والأسى: أحببتكِ يا دليلة، لم أكن أبدًا أنوي إيذاءكِ، لكن عندما قررت الابتعاد عنكِ، وإخراجك من حياتي حدث ما حدث وما كنت أخشاه.

ضحكت بمرارة، ضحكة حملت في طياتها كلّ السخرية والعجز، وكأنّ ما تسمعه يتجاوز قدرتها على الفهم، فخرج صوتها متعبًا، مجهدًا: وماذا كنت ستفعل لو لم يحدث شيئًا؟

أغمض عينيه للحظة، بدأ يشعر أنّ الحقيقة تضيّق صدره، والذكريات تتشابك في ذهنه كخيوط عنكبوت، فتنفس ببطء، ثمّ قال: كنت أعلم ما سيحدث.

صمت هنيهة ثمّ استطرد حديثه ببعض من الخوف: ذلك اليوم على السفينة، أنا من أمره ألا يعود وقد ساعدني عمك قاسم.

شهقت بصوت أحدث في نفسها الذعر، متمتمة بصوت مرتعش: لا... لا يمكن!

نظر إليها بابتسامة باهتة، لكنّ عينيه كانتا تعكسان ندمًا عميقًا: عندما رأيتكِ لأول مرة، ظننت أنّ الأمر سيكون سهلًا، وأنني سأمتلك قلبكِ في ليلة واحدة. لكنكِ تجاوزتِ كلّ التوقعات، علمت منذ البداية أنكِ تحت المراقبة، وأنّ عمكِ أرسل من يتعقبكِ، الأمر بدا بسيطًا بالنسبة لي، ساعدته ليصل إليكِ سريعًا، أنا من دفعه للوصول إلى قبطان السفينة، ونسجت له تلك الخطة للإيقاع بكِ، أردت أن أجردكِ من كل شيء كي تصيري لي وحدي.

وقف للحظة كمن يحاول أن يجد الكلمات المناسبة لما تبقى له ليقوله، ثمّ أردف قائلًا: عندما أرسل حارسه تلك الليلة، وعلم بنجاح خطته، أخبرته

أن يأتي ووالدك معه، الخطوة الأولى لمحاولة كسر عنادكِ وإتمام زواجك في أسرع وقت، لكن لا أعلم ما الذي تحرك داخلي تجاهكِ جعلني أهرول خلفكِ كي تعودي مرة أخرى.

صرخت بعد أن صفعته بكل ما أوتيت من قوة، ومع ذلك ظل ثابتًا في مكانه، متحجرًا كمن صُلب في الأرض، ثمّ استأنف حديثه، يستعيد قصته المأساوية، مشددًا على تفاصيل الماضي الذي ينزف داخله: أنتِ لا تعلمين مقدار الألم الذي يسكن قلبي، نعم، أعترف أنني أخطأت، لم يكن عليّ الانتقام منكِ، لكن في الوقت ذاته حملني الكره الشديد تجاه عائلتكِ أن أفعل ما فعلت، لكنّني عندما انتبهت للخطأ الفادح الذي ارتكبته، قررت الانسحاب وإعادة الأمور إلى نصابها.

نظرت إليه بجمود، وتحدثت بألم قاتل: من حق المحكوم عليه بالإعدام أن يعلم أصل الجريمة التي عوقب عليها، ماذا حدث ليلة الخطبة؟

كانت تتحدى قلبه أن يتجرأ على الاعتراف دون أن يطرف له جفن، تنهد وأخرج نفسًا محملًا بوجع الماضي، وتحدث بصوت متهدج: كانت اللعبة تجسيدًا لكل ما مضى، شاهدًا صامتًا على ماضٍ لا يمكن تجاوزه، أتذكر تلك الليلة جيدًا، حين جاء أبي مهانًا، يحاول إقناع والدك بعودته إلى العائلة، راح يتوسل إليه طالبًا أن يعفيه من الخسائر التي التهمت كل ما يملك، تجارته سقطت ولم يعد لنا مأوى غيركم، لكنّ العائلة بالنسبة للجميع كيانٌ مقدسٌ، مستعدون لارتكاب أي شيء من أجل الحفاظ على اسمها مرفوعًا

كالراية، نما داخلي كرةٌ لا يطاق تجاههم، كنت أتشوق لرؤية اسمهم يُداس تحت الأقدام، يُلطخ بالعار كما لطخوا حياة أبي وأمي، أمنيتي الوحيدة أن أراها تنهار بالبشاعة نفسها التي أسقطوا بها كرامتنا.

انطلقت كلماته كالسهام، أصابتها من كلّ صوب، شعرت بوصمة عار حقيقية ارتكبتها في حق نفسها قبل عائلتها، استطرد الحديث بعد أن التقط أنفاسه وقال: تلك الأيام كنا نأتي إلى منزلكم من حين لآخر، في المرة الأخيرة رأيت شقيقك حينها كان اشتدّ المرض عليه، ووالدتكِ دائمًا تخشى أن يقترب أحد منه... توقف للحظة، عيناه تائهتان في ذاكرة بعيدة، ثمّ تابع بصوت كمن يروي جرحًا قديمًا: كنتُ طفلًا، أردت أن أدخل الغرفة لأراه، لكن والدتك منعتني بقسوة، لم أفهم لماذا، فحاولت التسلل ورأيته وسط ألعابه الكثيرة، لا أعلم هل بدافع الطفولة أم الغيرة والكره سرقت منه اللعبة التي كان يحتضنها وخبأتها... لم أكن أفهم ما أفعل، لكن تلك اللحظة بقيت محفورة في ذاكرتي.

تراجعت دليلة بخطوات مترددة، شعرت بالأرض تموج تحت قدميها، كما لو أنّ العالم ينهار حولها، تحدثت وصوتها يئن بالألم: لماذا أنا؟

اقترب ببطء، لكنّها انسحبت للوراء، فقد بات وجوده يشكل تهديدًا لها، شعر بثقل الموقف بينهما والمشاعر التي تعصف بها، الفتاة التي كانت بين أحضانه في الأمس، اليوم تبتعد، خائفة من القرب منه.

تنهد بعمق، وقال بصوت يحمل وجعًا مريرًا: بعد وفاة أبي، رحلنا أنا وأمي وشقيقتي رحاب، بلا أي شيء، تنقلنا في كل مكان كالمتسولين بعد ما كنا من السادة، حتى جاءنا خبر أنّ السيد فاروق يبحث عنا، ظننا أنه وافق على عودتنا وإرجاع ما فقده أبي وتسبب في موته، لكن القدر لم يكن رحيمًا إلى هذا الحد، فقط أرسل لنا بعض المال، في تلك الأثناء مرضت شقيقتي وكنا بحاجة ماسة إلى كل مساعدة، قبلت أمي بالمال ومع مرور الأيام تغير كل شيء، ذات يوم جاءنا زائر غريب، دخل بيتنا دون استئذان، حاولت منعه، لكن أمي نهرتني حينها.. صمت هنيهة، ثمّ استأنف بصوت مكسور وأضاف: علمت بعد ذلك أنّه قاسم الشرقاوي، الرجل الذي لا يقهر، كان يأتي من وقت لآخر، يزورنا ليلًا ويغادر صباحًا، لا أستطيع وصف ما شعرت به حين رأيته يخرج من غرفة أمي، كنتُ أراها تقبل منه المال حين يغادر، ثمّ تبكي بحسرة قبل أن نراها، لم أستطع حمايتها من تلك الحياة، ومع كلّ زيارة يُعاد الألم لكن بجرعة مكثفة، عمك رجل الأخلاق والقيَم، كان يلقي بشرفه خارج الغرفة قبل أن يلتقي بها، وعندما ينتهي منها، يرتدي عباءة النُصح والتقوى ويعود قناعه الزائف للظهور، حاولت والدتي الوصول إلى والدك، لتخبره، واجهتها العوائق، ولم تتمكن من كشف الحقيقة، أخبر الجميع أنّ رحاب ليست من نسل الشرقاوية، أذل أمي وأهان كرامتها وشرفها وعندما استعانت بالداية أم إسماعيل المرأة الوحيدة التي علمت بسرها، أرسل رجاله ليشعلوا النار في بيتها، ماتت واحترقت معها أسرارنا،

وأصابت أمي وشقيقتي حروقٌ بالغة، كدت أموت خوفًا عليهما، لكنّه القدر وظلم قاسم الذي سُلط علينا.

عندما وصلتا إلى المستشفى، كانتا قد فارقتا الحياة، لم أبكِ؛ بل وقفت أتطلع على جثمانيهما، للحظة رأيت روحي ترافقهما، لم أرَ أمامي سوى صورة عمك، تمنيت حينها أن أمزقه بيدي، أن أنتقم لأمي وشقيقتي وأبي ولي، في الوقت ذاته رأيتك، يوم الحريق، كنت أراقب الجميع من بعيد، كنتِ تمتطين حصانكِ، تندفعين بشجاعة نحو والدك، عرفت حينها من تكونين، وقررت أن تكوني أنتِ أداة انتقامي، أردت أن تكوني وصمة العار التي تلحق بعائلة الشرقاوي، أن أفعل بكِ ما فعله قاسم بأمي.

ظلت دليلة تستمع له، لم تتفوّه، لكنّها شعرت بأنّ شيئًا بداخلها ينكسر مع كلّ كلمة، ضحكت بهسترية وتحدثت بلهجة مشوبة بالسخرية: كنت مجرد أداة!

رد بسرعة: لا، لم تكوني كذلك، أحببتكِ، لم أكن أعلم أنني سأقع في حبكِ، شعرت معكِ بالقوة، والحنان، الأمل والحبّ، لكنّني أخطأت بحقكِ، لم أفق إلا بعد فوات الأوان.

صمت متنهدًا مرة أخرى ثم قال: لم يعلم أحد بخفايا نواياي، طمع قاسم في أن يجعلني خليفته، جعله يرغب في ضمي إلى العائلة لهذا زوجني ابنته، أردت أن أُبعدك عن كلّ هذا الجنون، وأجعله يدفع ثمنًا باهظًا جراء ما فعله بي، وبكِ.

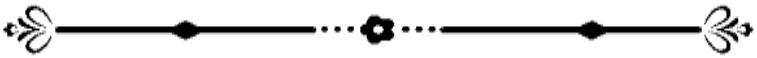

في تلك اللحظة، دخلت فاطمة إلى الغرفة، مسرعة ملامحها غاضبة وصوتها يوبخ: أخبرتك أن ترحلي، لقد علم عمي بوجودك، أبي لن يرقد بسلام طالما أنتِ هنا.

فجأة اشتد الصراع وعلت الأصوات ما بين الحقيقة والسراب حتى عم الصمت بعد أن دوى صوت رصاصة مزقت الجميع وما عادت تفرق بين الخطأ والصواب.

بعد تسعة أشهر

للماضي جناحان يرفرف بهما حول الأرواح التائهة، محاولًا إرشادها إلى الوجهة التي غفلت عنها حين تركته وراءها.

كان صوت الرصاصة يمزق سكون الليل، مستهدفًا قلب الفتاة المذنبة، وقفت دليلة أمام القطار القادم، عيناها مغمضتان، تحاول قتل ذكرياتها الموجعة واللحاق بروح والدها، لكن الحياة كانت أكثر قسوة ممن أدموا قلبها، فقد عانقها قاتلها في لحظتها الأخيرة، وهمس في أذنها بصوت خافت، تاركًا وصيته الأخيرة: أحبكِ يا دليلة... كوني بخير من أجلي، سكونٌ قاتلٌ وكلماتٌ لم تفارقها.

توقفت عن الكتابة، لم تعد هناك صفحات بيضاء تحتمل ذكريات جديدة تتكسر كلما حاولت الهرب منها، وضعت يدها على بطنها المنتفخ، ابتسامة مغلفة بمرارة علقت بين أضلعها، قالت بنبرة حانية: قريبًا، سنلتقي يا

طفلي العزيز، سأجعلك ترى الحياة من جديد، بعيون لا تحمل أثقال ماضٍ لم يكن لنا يد فيه.

أخرجت من درج المكتب ورقتين مطويتين بشكل مغلف، كأنهما تخشيان الضياع، كانتا تحملان سرها هي وآدم، وثيقة زائفة كُتب داخلها قصة حبّ ملطخة بالكذب، لكنّها الآن الشاهد المتبقي على تلك الكذبة، فهي لن تُعيد تاريخ والده ولن تجعله يعود إلى سيرته الأولى.

أمسكت دفترها المبتل، قلبت صفحاته الممزقة حتى استقرت يدها على آخر صفحة صامدة، بخطٍ مرتجفٍ، كتبت اسمًا جديدًا: فاروق آدم الشرقاوي.

تمت

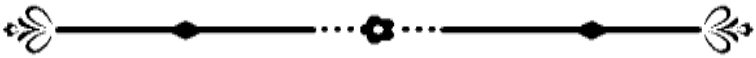

محتويات الرواية

(1) وشـــائـــج 8

(2) مـــــاضٍ..... 15

(3) شوك وورد..... 25

(4) قـــــــرار 34

(5) حرب على وشك الاندلاع 40

(6) رحيل مع إيقاف التنفيذ..... 48

(7) القـــاهـــــرة 55

(8) محـــــطة قطـــــار..... 61

(9) صـورة ثانيــة..... 67

(10) اللـــعبـــة 72

(11) خطـأ مقصـود 76

(12) حلـــم مـعطـــــوب 83

(13) عـودة ميـــت 87

(14) فاصـــل ونعـــــود 93

(15) هارمونيكـــــــــا 99

(16) بـــدايـــة ونهـايـة 103

(17) كبـــرياء ميـــت 108

(18) سقـــوط فـــارغ 113

(19) قُبلـة مـرحـة 119

(20) مجـرد ألـــم 124

(21) مـات ولـم يمـت 129

(22) وعصفت الشمـــــس 136

محتويات الرواية 146

للتواصل مع الدار

التعاقدات

المعارض

الصفحة الرسمية

مسابقات

طلب إصدارات

الإعداد

التوزيع